

# الباب الأول

## في الأدب

### الفصل الأول

#### ما الأدب ؟

- ١ -

لعل أول ما يعيننا في فاتحة هذه الفصول إنما هو القول في نشأة هذه الكلمة — أدب — في تاريخ اللغة العربية وبيان المعاني التي تواردت عليها أثناء القرون السالفة حتى اطمأننا إلى هذا الموضع الاصطلاحي الحديث ..

وإن نحن وقفنا عند المأثور من النصوص الجاهلية فلن نجد فيها هذه الكلمة حتى نخيل إلى الناظر أن العرب لم يعرفوها في لغتهم القديمة إلى أن نبغت في عصر الأمويين . ولكن ذلك وحده لا ينفي الكلمة عن العصر الجاهلي ، إذ كان من المقرر الثابت أن الأدب الجاهلي ضاع منه كثير<sup>(١)</sup> ، وما بقي وصل إلينا بعد عهد طوئيل مضطرب بالأحداث الدينية والسياسية والاجتماعية ، وكان وصوله بطريق الرواية التي اعتمدت على الذاكرة — وهي غير وثيقة الحفظ — فناله من ذلك نقص ونحوير ، وصارت نصوصه الباقية لا تنتهي ، في رأي المتحرجين ، إلى يقين ، ولا سيما إذا سمحنا لنظرية الانتحال أن تبسط سلطانها على أكثر الأدب الجاهلي

(١) ابن سلام : طبقات الشعراء ، ص ١٧ طبعة مصر .

كما يرى ذلك جماعة من المستشرقين وبعض الباحثين من الشرقيين<sup>(١)</sup> .  
ونحو ذلك يقال في اللغة العربية نفسها ، فقد بقيت شفوية مختلطة اللهجات ،  
فيها الأصيل والدخيل ، لم يحاول أحد إحصاء ألفاظها ، وتحديد معانيها ، وبيان  
لهجاتها ، وضبط كلماتها إلا في عصر متأخر لا يسمح بالثقة المطلقة ، ولاتحري  
الدقيق والجمع التام ، فكانت المعاجم اجتهدية نجوى أكثر المواد لا كلها<sup>(٢)</sup> .  
ومن سوء الحظ أننا للآن لم نطفر بهذا المعجم التاريخي الذي يتتبع الكلمات  
اللغوية في أطوار التاريخ شارحاً معانيها المتعاقبة ، فإن هذا لو توافر لكان أجدى  
على اللغة والعلم والأدب من كثرة المعاجم التي قامت على أصول يسيرة ، وجمعت  
بأسلوب مختلط لا تنسيق فيه .

فالقول بأن هذه الكلمة لم تجر على السنة الجاهلين ، لأنها لم ترد فيما رجحت  
نسبته إليهم من اللغة والأدب ، قول لا ينتهي كذلك إلى يقين .

ولكن الذي يلفت النظر حقاً أن هذه الكلمة ، على خفتها وفصاحتها ، لم  
ترد في القرآن الكريم على الرغم من ورود معناها في آيه بكثرة ، وشدة اتصالها  
بأغراضه وموضوعاته ، ولعل أحداً لا يستطيع أن يقف من القرآن الكريم موقفه  
من اللغة والأدب الجاهلين فيشك في لغته أو نصوصه ، إذ لا شك في صحة  
روايته عن الرسول عليه السلام ، فهل يمكن أن تكون هذه الكلمة من غير لغة  
قریش التي نزل بها القرآن ، والتي حفظت في المصاحف من عهد عثمان إلى الآن ؟  
وعذا أيضاً لا يمكن القطع فيه بشئ . لأن القرآن لم يستوعب ألفاظ اللغة القرشية  
جميعاً ، وكل ما يمكن قوله أن الكلمة لم ترد في القرآن الكريم يقيناً ، وإن  
كان (ورودها في الأدب الجاهلي موضع شك وارتباب .

(١) حله حسين : في الأدب الجاهلي : ص ١١٣ ، الطبعة الثانية .

(٢) أحمد أمين : ضحى الاسلام ، ج ٢ ، ص ٢٤٣ الطبعة الأولى .

كذلك يقف بعض الباحثين<sup>(١)</sup> من الأقوال المنسوبة إلى الرسول عليه السلام وإلى صحابته إبان ظهور الإسلام موقف التردد وعدم الاطمئنان إذ لا سبيل إلى تحقيق ما صحح وتواتر أو لم يصح منها كقوله عليه السلام : « أدبني ربي فأحسن تأديبي ، وربيت في بني سعد » وغير ذلك مما يمر بك فيما يلي . ومعنى هذا أن التاريخ القديم لكلمة — أدب — مجهول جهلاً علمياً مادامنا لا نظفر بالدليل القاطع أو النص الأول على وجودها .

هذا هو المعروف الآن بين المؤرخين . ومع ذلك فليس ما يمنعنا هنا أن نقف قليلاً لنلاحظ قبل كل شيء ، أن هذه الكلمة يغلب أن تكون عربية الأصل لوجهين ظاهرين :

أحدهما : وجود أخواتها المشتركة معها في المادة والقريبات منها في المعنى ، مثل بدأ وأبد ودأب ، وهي تشترك جميعاً في معنى التعلق بالشيء ومباشرته . ويندر جداً أن ترد هذه الكلمات دون كلمة — أدب — خلفتها ، ودوران معناها في الحياة العربية الجاهلية ، مع تشابهها في المعنى وهذه الأخوات .

الثاني : ما ثبت من عدم ورود هذه الكلمة في اللغات السامية الأخرى كالسريانية والعبرية<sup>(٢)</sup> التي تعلم من أخوات العربية وأصولها فرجح أن تكون عربية الأصل وليست بالدخيلة .

وهناك من يفرض<sup>(٣)</sup> أن تكون هذه الكلمة دخلت العربية وسائر اللغات السامية من لغة الشومريين الذين عمروا جنوبى العراق من أقدم العصور وأخذها

(١) طه حسين في الأدب الجاهلي ص ١٩ .

(٢) طه حسين في الأدب الجاهلي ، ص ٢٠ ومن بعيد ، ص ٢٥٥ .

(٣) أحمد حسن الزيات : في أصول الأدب ص ٩ وجورجى زيدان : تاريخ آداب اللغة

العربية ج ١ ، ص ١٢ .

عنهم الساميون الطارئون عليهم ، إذ كان معناها عندهم — إنسان — ولعلها استحالَت بعد من أدب إلى آدم ، ثم آدم في اللغات السامية ، واحتفظت العربية بالأصل الشومري لمرزاتها النسبية في الصحراء ، واستعماته فيما يؤدي معنى الإنسانية — أو الآدمية — من كرم الخلال وما يتصل به . وهو فرض شبهه هناك أن يكون حقيقة علمية مقررة .

ثم نلاحظ كذلك أن هذه النصوص المنسوبة إلى الرسول وصحابته كثيرة تعدد فيها معنى الكلمة كما تنوعت مادتها . منها ما روي أن علياً رضى الله عنه قال للرسول عليه السلام : يا رسول الله نحن بنو أب واحد ، ويراك تسكلم وفود العرب بما لانهم أكثره ، فقال الرسول : « أدبني ربي فأحسن تأديبي وربيت في بني سعد » فللمادة هنا فعل متعدٍ معناه التعليم ، وروي عبد الله بن مسعود أن النبي عليه السلام قال : « إن هذا القرآن مادة الله في الأرض فتعلموا من مادته » والمادة اسم مكان من الأدب على التشبيه ، فالقرآن يجمع الآداب التي يدعو الله تعالى عباده إليها من خلق كريم ، وحكم صالحة ، ومواعظ نافعة من كل ما يتصل بمعنى التهذيب النفسى . وفي حديث علي بن أبي طالب : « أما إخواننا بنو أمية فقادة أدبة » . وهى هنا جمع أدب كـ كتاب وكتابة ، وهو الداعى إلى المأدبة ، وهى الطعام الذى يصنعه الرجل يدعو إليه الناس<sup>(١)</sup> وفى هذا تفسير الأصل اللغوى الأول لهذه المادة فى رأى بعض العلماء .

فمنه الأقوال وسواها من الكثرة بحيث يبعد نفياً أو حمل هذه المادة عليها جميعاً . ونجد المتحدثين فيها متفاهمين على معانى الكلمة مما يدل على أنها غير مرفجة وقد شاعت فيها بعدالة على نفس المعانى التى دلت عليها صدر الإسلام بتوسع قليل . وهذا يرجح كثيراً أن الكلمة كانت معروفة أيام الرسول وصحابته

---

(١) ابن الأثير : النهاية مادة أدب .

وفي الجاهلية أيضاً ، وكانت تدل على معنى الخلق الكريم وما يتركه من أثر في الحياة العامة والخاصة<sup>(١)</sup>

على أن هناك أقوالاً أخرى محاولة على العصر الجاهلي لا بأس من الوقوف عندها لحظة لعل في ذلك ما ينفعنا هنا ، ففي كتاب النعمان بن المنذر إلى كسرى مع وفد العرب « وقد أوقدتُ أيها الملك رهطاً من العرب لهم فضل في أحسابهم وأنسابهم وعقولهم وآدابهم » . وفي كلام علقمة بن علاثة أمام كسرى « فليس من حضرك منا بأفضل ممن عذب عنك ، بل لو قست كل رجل منهم ، وعلمت منهم ما علمنا لوجدت له في آبائه أنداداً وأكفاء كلهم إلى الفضل منسوب ، وبالشرف والسؤدد موصوف وبالرأى الفاضل والأدب معروف »<sup>(٢)</sup> .

فهذه الروايات ونحوها لانشيد بها إذ كانت بعيدة العهد معرضة لدعوى الانتحال ولكنها من ناحية ثانية تبين لنا ، على الأقل ، رأى هؤلاء المنتحلين في عرب الجاهلية ، وكيف كانوا يتصورون حياتهم الاجتماعية ، والأدبية ، والسياسية . وهذه الصورة تشير إلى أن معنى كلمة الأدب من الناحية التهذيبية كان معروفاً قبل الإسلام . ألا يدل هذا على أن كلمة الأدب عرفت في الجاهلية لأداء هذا المعنى ؟ هذا شيء لا يمنع من رجحانه مانع .

فلما كان العصر الأموي رأينا كلمة الأدب تدخل التاريخ الصحيح ، فيشيع استعمالها وتعدد مشتقاتها ، وتمايز معانيها ، وتصبح عنواناً على الوسيلة الفذة للتربية والتعليم ، وينشأ من ذلك مهنة لجامعة من الأساتذة المتأخرين الذين ينشئون الطبقة العالية ، وينهضون بتعليم أبناء الخلفاء والأمراء ، وكانوا يسمون المؤدبين كالأبي

(١) جولدزيهر Goldziher دائرة المعارف الإسلامية مجلد ١ - ع ٨ - د ٨ ص ٣٢ من الترجمة العربية ، والزيات في أصول الأدب ص ٧ .

(٢) ابن عبدبره : العقد الفريد ج ١ ، ص ٩٩ - ٩١ من المطبعة المرفقة ١٩١٦ م .

معبد الجهني وعامر الشعبي وكانا يعلنان أولاد عبد الملك بن مروان ، وصالح بن  
كيسان مؤدب بني عمر بن العزيز ، والجمد بن درهم مؤدب ومروان بن محمد آخر  
الخلفاء الأمويين<sup>(١)</sup>

والنصوص المرفوعة إلى هذا العهد ناطقة بذلك كله فقد قال زياد في خطبته  
البراء : « قاعدوا الله بالصالح لأتكم ، فإنهم ساستكم المؤدبون لكم . . .  
أما والله لأؤدبنكم غير هذا الأدب أو لنستقيمن »<sup>(٢)</sup> . ووضح أن المادة هنا  
مستعملة في معناها التهذيبي المتصل بالخلق والسلوك ، وهي كذلك في قول بعض  
الفزاريين من شعراء الحنابلة : —

أَكْنِيهِ حِينَ أُتَادِيهِ لَا كَرَمَهُ وَلَا أَلْقِيَهُ ، وَالسُّوءَةُ اللَّقْبُ  
كَذَاكَ أَدَبٌ حَتَّى صَارَ مِنْ خَلْقِي أَنَّى وَجَدْتُ ، مَلَاكُ الشَّيْئَةِ الْأَدَبُ  
وقال عبد الملك بن مروان لمؤدب وكثيره : « علمهم الشعر يمجّدوا وينجّدوا »<sup>(٣)</sup>  
والأدب هنا التعليم والتثقيف ، مثله في قول عمر بن عبد العزيز لمؤدبه : كيف  
كانت طاعتي إياك وأنت تؤدّيني ؟ قال أحسن طاعة . قال : فأطعني الآن كما  
كنت أطيعك<sup>(٤)</sup> .

وكان هؤلاء المؤدّبون يدرسون للناشئين الشعر وما يتصل به من نسب  
وأيام وأخبار ، وأمثال ، شرحاً له ، وتوسعة للمعارف ، ومن ذلك تحدّد المعنى  
التهذيبي لمادة الأدب منذ أواسط القرن الأول للهجرة وصارت تؤدّي معنيين  
ممتازين : —

أحدهما هذا المعنى الخلقى التهذيبي وهو أخذ النفس بالمرانة على الفضائل

(١) الرافعي تاريخ آداب العرب ، ج ١ ص ٢٩

(٢) البيان والبيان للجاحظ ج ٢ ص ٥٨ .

(٣) نقد النثر ص ٢٠ .

(٤) عيون الأخبار لابن قتيبة ج ١ ص ٢٠٩

الاجتماعية ، والشيم الكريمة من حلم وكرم وشجاعة وصدق ، ثم التأثر بهذه المرانة لاكتساب الأخلاق الفاضلة والسيرة الحميدة في الناس . ومن ذلك ما سمي عبد الله بن المقفع كتابيه الأدب الصغير والأدب الكبير لاشتمالهما على قوانين وأصول من تمسك بها صار أديباً أى فاضلاً مؤدّباً ذا خلق كريم وسيرة محمودة .

والثاني هذا المعنى التعليمي القائم على رواية الشعر والنثر وما يتصل بهما من نسب وخبر وأمثال ومعارف تزيد العقل نوراً ، والذوق صفاء ، والنفس ثقافة وعرفاناً ، على أن هذه المعارف التي تسكوّن الثقافة الأدبية امتازت من معارف أخرى كانت قوام الثقافة الدينية للمسلمين في ذلك الحين<sup>(١)</sup> وهي القرآن الكريم والحديث الشريف وما يتصل بهما من تفسير وفقه ، وفتاوى عُنى بها الصحابة والتابعون عناية خاصة تقوم على صدق الرواية وتحرّى الصواب . ومن ذلك العهد امتاز الأديب — أو المؤدّب — من الشاعر والسكراتب ، فإذا غلب على الرجل درسُ الأدب وتعليمه فهو الأديب ، وإذا غلب عليه إنشاء الشعر فهو شاعر ، وإذا غلب عليه إنشاء النثر فهو كاتب وربما جمع الرجل بين هذه الألقاب الثلاثة أو اثنين منها<sup>(٢)</sup>

وقد بقيت مادة الأدب تدل على هذين المعنيين منذ القرن الهجري الأول إلى الآن مع تعديل بسيط يتناولهما ضيقاً وسعة خلال القرون التالية ، ولكنهما صارا أهم ماتعنى حتى أثر قولهم : الأدب أدبان : أدب النفس وأدب الدرس<sup>(٣)</sup> .

\* \* \*

فلما انتصف القرن الثاني ونشأت العلوم العربية كاللغة والنحو والصرف واتخذت لنفسها هذه الأسماء الاصطلاحية انضافت إلى معنى الأدب التعليمي ، فاتسع قليلاً وصارت الكلمة تدل على متأثر النظم والنثر وما يتصل به من نسب

(١) دائرة المعارف الاسلامية مادة أدب .

(٢) عبد الوهاب عزام الرسالة عدد ٢٩١ .

(٣) لسان العرب مادة أدب .

وخبر وصرف ولغة ونقد . ولكن ذلك لم يدم طويلا ، فان الحضارة العباسية قد صحبها من قوة العلوم العربية واستقلالها ، ومن استحالة الأوضاع الاجتماعية ، وتعدد النواحي الثقافية<sup>(١)</sup> ما جعل مادة الأدب في أخريات القرن الثالث تؤدي المعاني الآتية :

أولا — هذا المعنى الخاص وهو الشعر والنثر وما يتصل بهما من الأخبار والأنساب والأيام ، والأحكام النقدية ، وهذا المعنى قريب مما كانت تؤديه في القرن الأول وقد زاد عليه النثر الفني ، والنقد الأدبي . واقتدت في هذا القرن الثالث كتب أدبية هي مصداق لهذا المعنى الخاص وتفسير له ؛ منها البيان والتبيين للجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ هـ والشعر والشعراء لابن قتيبة ٢٧٦ هـ والكامل للمبرد ٢٨٥ هـ وطبقات الشعراء لمحمد بن سلام المتوفى سنة ٣١٠ هـ وغيرها مما تجد فيه الأدب الخالص مع مسائل لغوية ونحوية وآراء نقدية ، ومعارف قصصية .

ثانياً — هذا المعنى العام الذي يتناول المعارف الإنسانية ، والآثار العلمية ، وأنواع الفنون الجميلة والرياضة مما يوسع الثقافة ، ويكسب الشخص ظرفاً وأناقاً . يدل على ذلك ما روى عن الحسن بن سهل الوزير العباسي المتوفى سنة ٢٣٦ هـ أنه قال : الأدب عشرة : ثلاثة شهرجانية ، وثلاثة أنوشروانية ، وثلاثة عربية ، وواحدة أربت عليهن . فأما اللوح والشطرنج ولعب الصوالج فشهرجانية . وأما الأنوشروانية فالطب والمهندسة والفروسية . وأما العربية فالشعر والنسب وأيام الناس . وأما الوحمة التي أربت عليهن فقطعات الحديث والسمر وما يتلقاه الناس بينهم في المجالس . وواضح من هذا مقدار الآثار الاجتماعية والثقافية التي أدخلها الفرس في الحياة الإسلامية الجديدة<sup>(٢)</sup> . وعن الجاحظ « إنا وجدنا الفلاسفة

(١) راجع في هذا الموضوع ضحى الإسلام لأحمد أمين .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية وزهر الآداب ج ١ ص ١٥٩ .



المتقدمين في الحكمة ذكروا أن أصول الآداب التي يتفرع منها العلم لذوى الألباب أربعة : فمنها النجوم وأبراجها وحسابها ، ومنها الهندسة وما اتصل بها من المساحة والوزن والتقدير . ومنها الكيمياء والطب وما ينشعب من ذلك ، ومنها اللحون ومعرفة أجزائها ومخارجها وأوزانها<sup>(١)</sup> . وقد بقي هذا المعنى العام وزاد اتساعاً في القرآن الرابع كما يلي .

ثالثاً — هذه العلوم الأدبية التي استقلت وصارت شيئاً غير الأدب الفني الخالص وإن كانت لازمة للأديب يستكمل بها ثقافته ، ويستعين بها على إنشاء الأدب ، وفهمه ، ونقده ، كاللغة والنحو والنسب ، والأخبار ، والنقد ، وهي العلوم التي كانت عماد الثقافة العربية . وكانت بجانبها ثقافة دينية تنوعت علومها وعمقت أبحاثها لتفسير القرآن وعلوم الحديث ، والفقه ، وأصوله ، وعلم الكلام — التوحيد — ومذاهبه . وثقافة فلسفية منقولة في الأصل عن اليونان والهنود والفرس وغيرهم من الأمم الأجنبية . وسنتناول العلوم الأدبية في فصل خاص .

رابعاً — أدب النفس وقد اتسع هذا المعنى فتناول كل أسلوب مستحسن في علم أو عمل من خلق فاضل ، وسيرة محمودة ، وقوانين يلزمها كل ذى حرفة أو منصب . وقد ألفت كتب في هذه الفترة طبقاً لهذا المعنى وإقراراً له ، كأدب القاضي للإمام أبي يوسف المتوفى سنة ١٨٠ هـ وأدب القراءة لابن قتيبة سنة ٢٧٦ هـ وباب الأدب في صحيح البخارى ٢٥٦ هـ وفي حماسة أبي تمام ٢٣١ هـ وأدب النفس لأبي العباس السرخسى سنة ٢٨٦ هـ ألفه المعتضد بالله العباسى وهكذا يستمر هذا الضرب من التأليف فيما بعد القرن الثالث كأدب النديم لكشاحم الشاعر المتوفى سنة ٣٥٩ هـ ، وأدب الدنيا والدين للماوردي سنة ٤٥٠ هـ ، ثم آداب الصوفية للنيسابورى سنة ٤٤٥ هـ وآداب البحث والمناظرة .

\* \* \*

---

(١) في أصول الأدب للزيات ص ١١ .

فلما كان القرن الرابع كانت العلوم اللغوية مستقلة منفصلة عن الأدب ،  
وبقى النقد — أو العلوم البيانية — متصلاً به أو جزءاً منه إذ كان بحثاً في  
صميم الأدب من أخص نواحيه ، وهى الناحية الفنية ، وقد نشطت حركة النقد  
فى هذا القرن <sup>(١)</sup> وبلغت درجة سامية حاول هذا الفن أن يستقل على أثرها فتم  
ذلك له ، وصار علماً أو فناً أدبياً آخر ، ثم استجالت مسأله فأثمرت البلاغة التى  
انتهت إلى علوم المعانى والبيان البديع .

ومن أهم الكتب التى ظهرت فى القرن الرابع مثلاً لنشاط النقد ومحاولته  
الوجود الاستقلالى ، كتاب الصناعتين لأبى هلال العسكري المتوفى سنة ٢٥٩ هـ  
وقد عرض فيه مؤلفه للشعر والنثر وحاول أن يدل على مواضع الجمال الفنى فيهما <sup>(٢)</sup>  
جامعاً فى ذلك بين مسائل النقد الأدبى والبلاغة ، ويقرب من ذلك كتابه ديوان  
المعانى وإن غلبت على هذا صفة الرواية للمنسقة . ومثله كتاب العقد الفريد لابن  
عبد ربه المتوفى سنة ٥٢٠ هـ « وفى هذا القرن الرابع كانت الخصومة عنيفة بين  
أنصار البحترى من ناحية وأبى تمام من ناحية أخرى . فلما تقدم هذا القرن  
ظهرت الخصومة قوية أيضاً بين أنصار المتنبى وخصومه ، واستفاد النقد من هذه  
الخصومة فألف الأمدى سنة ٣٧١ هـ كتابه « الموازنة بين الطائيين » ، وألف  
الجرجاني ٣٩٢ هـ « الوساطة بين المتنبى وخصومه » <sup>(٣)</sup> وبجانب هذين ظهر الأغانى  
لأبى الفرج الأصفهاني المتوفى سنة ٣٥٦ هـ وبعض رسائل أخرى استطاع النقد بها  
أن يؤسس استقلاله من ناحية وأن يمهّد لوجود البلاغة من ناحية أخرى . فلم  
يحل القرن الخامس حتى نهض بها أستاذها الفذ عبد القادر الجرجاني صاحب  
دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة . ومعنى هذا أن الأدب بمعناه الخاص ترك النقد

(١) تاريخ النقد الأدبى لطله إبراهيم ص ٦٤٧ .

(٢) ، (٣) فى الأدب الجاهلى ص ٢٤ الطبعة الثالثة .

والبلاغة ووقف عند الشعر والنثر الممتازين ، وهكذا كلما نضج علم مستقل تاركاً الفن الأدبي يدور حول مآثور القول . وأما المعنى العام فقد بقي على سعتة يتناول جميع الآثار العقلية عدا الشرعية والفلسفية الحقيقية ؛ فقد ورد في الرسالة السابعة من رسائل إخوان الصفاء ، وهي من آثار القرن الرابع : « اعلم يا أخى بأن العلوم التي يتعاطاها البشر ثلاثة أجناس منها الرياضية ، ومنها الشرعية الوضعية ، ومنها الفلسفية الحقيقية . فالرياضية هي علم الآداب التي وضع أكثرها لطلب المعاش وصلاح أمر الحياة الدنيا ، وهي تسعة أنواع : أولها علم الكتابة والقراءة ، ومنها علم اللغة والنحو ، ومنها علم الحساب والمعاملات ، ومنها علم الشعر والعروض ، ومنها علم السحر والعزائم والكيمياء والحيل وما يشاكلها . ومنها علم الحرف والصنائع . ومنها علم البيع والشراء والتجارات أو الحرث والنسل . ومنها علم السير والأخبار وفي هذا أثر الثقافة اليونانية <sup>(١)</sup> وعلى هذا الوجه قال أبو القاسم اسماعيل بن أحمد الشجري من شعراء القرن الرابع أيضاً وقد جمع حرف الآداب : إن شئت أن تعلم في الآداب منزلتي . وأنتى قد عُداني العز والنعم فالطرف والسيف والأوهاق تشهد لى والعود والنرد والشطرنج والقلم <sup>(٢)</sup>

فلما انتهى القرن الخامس انتهى معه استقلال العلوم الأدبية الهامة ووقف الأدب عند الشعر والنثر الممتازين . ومن ذلك الحين أخذ معنى هذه المادة يخضع لتحديد آخر يظهر فيما يلي :

أولاً — أن إطلاق هذا اللفظ على الفنون والصناعات وجميع العلوم غير الشرعية لم يدم بعد عهد إخوان الصفاء ، فقد أخذ مدلوله العام يضيق حتى وقف

(١) دائرة المعارف الإسلامية مادة أدب .

(٢) تاريخ أدب العرب للرافعي ج ١ ص ٢٧ الطرف الكريم من الحيل . والأوهاق

جمع ومق وهو الحبل في طرفه أنشودة بطرح في منق الداية حتى تؤخذ ..

عند علوم اللغة العربية وإن لم تحدد هذه العلوم إلى أواخر القرن الخامس<sup>(١)</sup> وسنفرد للكلام فيها فصلاً خاصاً .

ثانياً — أن المعنى الخاص لكلمة الأدب تحدد بما يجرى عليه الاستعمال اليوم وبما يقرب من معناه في القرن الأول . فقد أريد به مآثور المنظوم والمنثور . وهذا شيء غير العلوم الأدبية التي كانت جزءاً منه أول مائشآت في القرن الثاني . ثالثاً — أن جماعة العلماء اتجهت عنايتهم أكثر من قبل إلى هذه العلوم الأدبية — التي كانوا يطلقون عليها كلمة الأدب أحياناً وعلى أصحابها الأدباء — واختلفوا في حصرها على ممر القرون التالية حتى عصرنا الحالي . نذكر منهم على سبيل المثال الزمخشري المتوفى سنة ٥٣٨ هـ الذي جعلها اثني عشر علماً ، والسكاكي سنة ٦٢٦ هـ في مفتاح العلوم ، ومعجم الأدباء لياقوت ٦٢٦ هـ ، والشريف الجرجاني في مقدمة شرح المفتاح سنة ٨١٦ هـ وغيرهم كثير حتى انتهى الرأي إلى ابن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨ هـ فقد عرض للأدب الكلام يحسن أن نقف عنده قليلاً ، لأنه حاول تعريف الأدب .

عقد ابن خلدون في مقدمته المشهورة فصلاً في علوم اللسان العربي تناول فيه النحو واللغة والبيان — أي علوم البلاغة — ثم الأدب فعد الأدب علماً من علوم اللسان العربي ، وجعله قسماً للنحو واللغة والمعاني والبيان والبديع . ولو أن ابن خلدون أطلق هذه التسمية على العلوم اللسانية كلها ، أو ذكر كلمة الأدب وحدها على هذه العلوم — كما فعل بعض السلف — لكان الأمر ولما وقع في هذا الاضطراب الذي ظهرت فيه حيرته وشعر هو بها من أول ما عرض للقول في — علم الأدب — آخر الفصل المذكور .

يعرف ابن خلدون أن لكل علم موضوعاً يبحث في إثبات عوارضه أو نفيها

(١) في أصول الأدب للزيات ص ١١ .

فموضوع الطب مثلاً جسم الإنسان من حيث ما يعرض له من الأمراض وعلاجها وموضوع النحو — ومنه الصرف أحياناً — الكلمات العربية وما يعرض لها كالإعراب والبناء وما يتبعهما من شروط النواسخ وحذف العائد وكسر إن أو فتحها ، ونحو ذلك ؛ فما موضوع علم الأدب عنده ؟ يقول : « هذا العلم لاموضوع له ينظر في إثبات عوارضه أو نفيها ، وإنما المقصود منه عند أهل اللسان ثمرته ، وهي الإجابة في فني المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم » . لم يستطع ابن خلدون أن يطرد الأدب مع سائر العلوم اللسانية إذ لم يجد له موضوعاً على نظامها فاحتار ، فنفى عنه الموضوعية ، وساقه هذا المساق الشاذ . والسبب في هذا الاضطراب الذي وقع فيه أنه عد الأدب علماً من هذه العلوم اللسانية ، وما كان الأدب في حقيقته إلا فناً كلامياً ، يصدر عن الأديب ، ويتخذ من هذه العلوم وسائل تعينه على تحقيق غايته التعبيرية والتهديبية ، فقياسه على هذه العلوم النظرية ذات القوانين خروج به عن طبيعته . هذا شيء ، وشيء آخر يعرفه النقاد الأدبي ، وهو أن لهذا الفن الأدبي موضوعاً مقررّاً هو الطبيعة والإنسان ، أو الطبيعة كما يشعر بها الإنسان في نفسه فيصور عواطفه وآراءه ، أو خارج نفسه حين يتناول مشاهد الحياة المادية وأحداثها المختلفة واصفاً أو ناقداً أو مفسراً ، وهكذا لم يحرم هذا الفن الرفيع من أن يكون ذا موضوع ككل العلوم والفنون .

ولا شك أن من وسائل تحصيل هذه الموهبة الفنية دراسة النصوص الأدبية وما يتصل بها « من شعر على الطبقة وسجع متساو في الإجابة ومسائل من اللغة والنحو مشبوتة أثناء ذلك متفرقة . . » إلى آخر ما ذكره في هذا الفصل بعقب ما قدمناه لك منقولاً عنه .

ثم ينتقل من ذلك إلى تعريف الأدب فيقول : « ثم إنهم إذا أرادوا أحد

هذا الفن قالوا : الأدب هو حفظ أشعار العرب وأخبارها ، والأخذ من كل فن بطرف يريدون علوم اللسان أو العلوم الشرعية . . الخ » .

وهنا نلاحظ أولاً أنه يطلق على الأدب كلمة الفن وهو في عرف المعاصرين إطلاق صحيح مقبول ، وإن ظهر لنا أن المتقدمين لم يتجروا دائماً التفرقة بينه وبين العلم كما نفهمها نحن الآن . والسكن المسألة هي : هل هذا التعريف ، الذي يسوقه ابن خلدون كالراوى له ، يصلح تعريفاً للأدب أو للتأدب ؟ . هل ينطبق على هذه النصوص الجيدة الممتازة التي ندرسها في الكتب ونقلناها عن الكتاب والشعراء أو هو بيان للوسيلة التي يعتمد عليها الطالب لتنمية مواهبه لعله يحسن إنشاء الأدب ونقده وتذوقه ؟

إذا كان الأدب ، كما عرفه الأقدمون ، هو ما يؤثر من الشعر والنثر — وهو وصف صحيح — فإن ما ذكره ابن خلدون ليس من تعريف الأدب في شيء ، وحسبه أن يكون تعريفاً للتأديب أو تحصيل الثقافة اللازمة للتأدب والتي تعينه في تقويم لسانه وتهذيب ذوقه .

وإذا فما الأدب ؟

في لسان العرب : وأصل الأدب الدعاء ، ومنه قيل للصنيع يدعى إليه الناس مدعاة ومأدبة . والأدب الذي يتأدب به الأديب من الناس ، سمي أدباً لأنه يأدب الناس إلى المحامد وينهاهم عن المقابح . وفي الحديث عن ابن مسعود « إن هذا القرآن مأدبة الله في الأرض فتعلموا من مأدبته » . وتأويل الحديث أنه شبه القرآن بصنيع صنعه الله للناس ، لهم فيه خير ومنافع ، ثم دعاهم إليه وفي المحيط الأدب محرمة الظرف وحسن التناول ، وأدبه علمه فتأدب والأدب بالفنح العجيب كالأدبة بالضم وأدب البحر كثرة مائه .

والذى يفهم من هذا أنهم يرجعون المادة إلى الأدب وهو الدعوة إلى التوالتهم  
ثم يجدون مناسبة بين هذا المعنى اللغوى الأول وبين معنى الأدب إذن كان داعياً  
إلى المحامد والفضائل . وهذا أحد الوجوه التى اتجه إليها الباحثون فى أصل هذه  
المادة . وهناك وجه آخر يراه الأستاذ تلمينو المستشرق الإيطالى المعروف والمتوفى  
سنة ١٩٣٨ م ، « فهو يشتقها من الدأب بمعنى العادة ، ويرى أن هذه الكلمة  
لم تشتق من المفرد ، وإنما اشتقت من الجمع فقد جمعت دأب على أدأب ثم قلبت  
فقليل أدأب كما جمعت بئر ورثم على آبار وأرأم ثم قلبت فقليل آبار وأرأم » . قال  
الأستاذ نلينو : « وكثير استعمال الأداب جمعاً للدأب حتى نسي العرب أصل هذا  
الجمع وما كان فيه من قلب ، وخيل إليهم أنه جمع لا قلب فيه ، فأخذوا منه  
مفردة أدباً لا دأباً ، وجرى استعمال هذه الكلمة بمعنى العادة ، ثم انتقل من  
هذا المعنى الطبيعى القديم إلى معانيه الأخرى المختلفة » . (١) وقد ذكرنا سابقاً  
ما قيل أن هذه المادة شومرية الأصل أخذها الساميون عنهم . واحتفظت بها  
العربية سليمة لعزلتها النسبية فى الصحراء . وكل تلك فروض يراد بها إزاحة  
الستار عن الأصل الأول لمادة الأدب . والذى أرجحه أن هذه المادة عربية  
جاهلية النشأة كما ذكرنا ذلك فيما مضى .

أما عن الناحية الاصطلاحية فيلاحظ ، قبل كل شيء ، أن ذلك المعنى  
الخلقى المتصل بالفضائل النفسية أو الأصول الدينية لا يراد هنا ، بل قد يتعارض مع  
المعنى الفنى المقصود الذى يقابل بالعلم نريد هنا ذلك الفن الكلامى الذى يعبر عن  
العقل ويصور الشعور ؛ وهو كما ترى مدلول غريب يتناول هذه الأهاجى المقذعة التى  
ثارت بين جرير والفرزدق والأخطل فى القرن الأول كما يتناول خمرات أبى نواس  
وغلمانياته ، وهى جميعها نكر فاحش وإثم شنيع فى رأى الدين والأخلاق .

(١) فى الأدب الجاهلى ، ص ١٨ وفى أصول الأدب ، ص ٨ .

وبعد هذا تعترضنا هذه الصعوبة التي تقف دائماً في وجه الدارسين ، صعوبة التوفيق إلى حدود منطقية دقيقة لاكثر المصطلحات التي تجري على الألسن دون أن تتضح مدلولاتها في أذهان مستعمليها أو يكونوا متفقين على ماها يعنون. من ذلك كلمات الجمال . والشعر ، والخيال ، والأدب ، والمثالية وغيرها كثير . وذلك أن هناك فرقاً واضحاً بين الأشياء الحسية . التي يتلقاها الإنسان بحواسه الظاهرة ويجري عليها تجاربه المتنوعة ويربها من التأثير بمزاجه وعواطفه ، وبين الأشياء الروحية والمعنوية التي يصعب إخضاعها للتجارب المحدودة ، والنواميس الثابتة لتغيرها واتصالها بالطبائع والانفعالات . فالأولى يمكن تعريفها بدقة أو قريب من ذلك كالمثلث والجزيرة والأجسام الصلبة والسائلة ، والثانية تجد معانيها مبهمه غير محدودة حتى في البيئة الواحدة وبين المشتغلين بها . وقد يحتمل بعض الباحثين للخروج من هذا الأبهام فيضع تعاريف عامة تتناول أكثر المعاني الجزئية ، ولكن ذلك يزيد في غموضها إذ لا يعرف القارىء أى المعانى يراد . وربما كان خيراً منه ذلك الذى يذكر للكلمة ما يريد لها من معنى في موضوعه ثم يشير إلى أن لها معانى أخرى في غير هذا المقام .

وقد رأيت ما طرأ على كلمة - الأدب - من معان في خلال القرون المتعاقبة ثم رأيت ما كانت تدل عليه من مآثور الشعر والترو وما يتصل به شرحاً أو نقداً ، ودرست هذا التعريف الذى ذكره ابن خلدون وكيف كان اضطرابه الشديد . كل ذلك يدعونا إلى أن نثير قليلاً لعلنا نقبين طبيعة هذا الفن الأدبي ، ونضع له من الرسوم ما يقربه ولو بعض التقريب ، إذ كانت الأقوال التى قيلت عن الأدب قديماً وحديثاً أكثرها أوصافاً أو تقاريظ . وقد رأيت شيئاً منها وارداً كتب الأدب العربى فلموارد بعض ما قال الغربيون .<sup>(١)</sup>

(١) رجعت فيما يلى من هذا الفصل إلى الفصل الثانى من كتاب : Principles of



يقول إمرسن Emerson : « الأدب سجل خير الأفكار » وهذا التعريف كما ترى يصح أن يطلق على الأدب بمعناه العام المعروف لنا الآن الذى يتناول جميع الآثار العقلية التى ينتجها الناس فى أية ناحية علمية أو فنية . وأما إذا وضعناه ليدل على مآثور الشعر والنثر كان تعريفاً جامعاً غير مانع ، فلا شك أن كتب الهندسة والطبيعة ، فيها من خير الأفكار ، ولم يقل أحد إنها من طراز شعر الباحثى أو نثر عبد الحميد الكاتب والجاحظ وبديع الزمان .

ويقول آخر واعله الأستاذ ستيفورد برك Stopford Brooke : « نريد بالأدب أفكار الأذكياء ومشاعرهم مكتوبة بأسلوب بلذ القارئ » ، وهذا القول قد عنى بناحية الجمال فى الأداء ليعت اللذة فى نفوس القارئ . ولكنه كسابقه يسمح للنظريات الهندسية والمسائل الجبرية أن تطرق باب الأدب متى كانت حسنة التنسيق قوية الإقناع ، على أن اللذة المقصودة هنا مهمة غير واضحة .

وهناك إجابة للكاتب الفرنسى الكبير الأستاذ سانت بيث Sainte Beuve عن سؤال متصل بموضوعنا : ما الأديب ؟ قال : « هو الكاتب الذى يغنى العقل الإنسانى ، ويزيد ثروته ، وهو الذى يعينه للسير قدماً ، وهو الذى يكشف حقيقة أدبية ويعرضها واضحة ، أو ينفذ إلى العاطفة الخالدة فى قلب الإنسان ، فيشرها فى حين يظن الناس أن كل ما فيه مرتاد معروف ، وهو الذى يؤدى فكرته أو ملاحظته أو رأيه فى صورة دقيقة معقولة جميلة ، ومن يخاطب الناس جميعاً بأسلوبه الخاص ولكنه أسلوب الجميع ، أسلوب حديث وقديم معاً ، وصالح لكل زمان » فالأدب عنده ، إذاً ، هو الكلام الدقيق الجميل الذى يعبر عن الحقائق الأدبية والمواطف الإنسانية . ولكن هذه الأوصاف التى ذكرها سانت بيث لا تتوافر

لكثير من الناس ؛ فاذا أصررنا عليها ضيقنا دائرة الأدب وقصرناه على أقل عدد من الأدباء المعروفين .

ومع ذلك فمن الخير أن نلجأ إلى هذه الطريقة الطبيعية لتعرف طبيعة الأدب وتبين خواصه التي تؤلف تعريفه ؛ تلك هي أن نعتمد إلى النصوص الأدبية المسلم بها ونتناولها بالنقد والموازنة بغيرها لعلنا نعرف ميزاتها واضحة فنصل من ذلك إلى ما نريد : متى يسمى النص أدباً ؟

الملاحظ أننا لانطلق هذه الكلمة على كل ما يطبع أو ينشر ، فلا نسمى التفاويم أدباً ، ولا الأخبار الجارية في الصحف أدباً . وذلك لأننا نراها ثم لانعود إلى قراءتها فيما بعد ، والأدب يمتاز ، أول ما يمتاز ، بأننا نعود إليه ونكرر قراءته إن لم يكن دائماً ففي أوقات مناسبة نجدنا في حاجة إلى الرجوع إليه لنسد حاجة عقولنا وقلوبنا بما فيه من غذاء صالح لامتله مهما نقبل عليه . وهذه الخاصة الأدبية الأولى هي التي نسمى خلود الأدب (Permanence) وعليه فالأدب هو هذه النصوص الخالدة التي يقرأها الناس مرة ومرة .

ولكن المسألة لا تزال في حاجة إلى الإيضاح : فأي شيء يهب للكتاب . والنص هذه القيمة الخالدة أو يسمي عليه صفة الخلود فنكرر قراءته ؟

هل معنى ذلك أنه يحتوي مادة دائمة الفائدة والمتعة للناس ؟ إذا كان الأمر كذلك فإن كتب الطبيعة والكيمياء وجداول اللوغاريتمات والتواريخ تحتوى مادة خالدة النفع يعتمد عليها الناس كثيراً جداً في الطب وشئون الحياة ، وهي مع ذلك ليست أدباً باتفاق ؛ فما الرأي ؟

الرأي أننا نقصد أن هذه الكتب أو النصوص هي في نفسها باقية خالدة لا يتحول عنها القراء مهما تتقدم الأيام أو توضع كتب أخرى في موضوعاتها . وبيان ذلك أن مثل هذه الكتب التي ذكرناها معرضة للنسيان والإعراض عنها

حينما تؤخذ نظرياتها وحقائقها ثم تدون في كتب سواها بصورة أخرى ، وبذلك يمكن الاستغناء عن الأولى ، فتموت وإن بقيت الحقائق والنظريات . ومعنى ذلك أنه لا يعد من الأدب ذلك الكتاب القابل لأن يستبدل به غيره في نفس موضوعه ثم يستغنى عنه بذلك الجديد ، ولكن القصة القيمة ، والقصيدة الرائعة والديوان الممتاز ؛ أى منها يبقى بنفسه مقروءاً لا تبليه الأيام مهما يظهر سواه في نفس الفن أو الموضوع ، فإن يستغنى الناس بوصف المتنبي عن وصف البهتري ، ولا بالجاحظ عن عبد الحميد ، ولا برثاء شوقي عن رثاء حافظ : ذلك لأن السكل من هؤلاء الأدباء لونه خاصاً في آثاره ، وذوقاً ممتازاً فيما ينشئ لا يشبه ما عند الآخر فلا غنى لنا بأحد عن صاحبه . ومثل هؤلاء الأدباء كمثل الأشربة أو الفواكه المختلفة ، كلها لذيذ الطعم ، ولا يسد أحدها مسد الآخر . وإذا ، فهناك فرق بين الحقيقة الخالدة التى يحتويها الكتاب العلمى ، وبين القيمة الخالدة التى هى ميزة الكتاب أو النص الأدبى .

ومع ذلك فإن السؤال لا يزال وارداً : ماذا يكسب الأثر الأدبى هذه الخاصة التى تجعله مقروءاً لذاته دائماً ؟

يقال : إن سبب ذلك أن الأثر الأدبى « يصور شخصية كاتبه » متى بدت فيه ميزاته النفسية . ومن الحق أن النص الأدبى العظيم صورة لشخصية صاحبه ، ولكن هل العكس صحيح ؟ هل كل كتاب معبر عن الشخصية يعد أدباً ؟ قد يكون فى هذا التعميم مبالغة . أليست كتب الفلاسفة والرياضة تدل على جهد كاتبها وأسلوبهم العقلى ، ومقدار فهمهم للحقائق ؟ أليس على أناسنا أن الأثر الأدبى أدل من الأثر العلمى على شخصية منشئه ، وهذا حق لا شك فيه ، فكيف أتبع له ذلك ؟ كيف تكون القصيدة معبرة عن شخصية العالم ؟ إذا عرفنا العنصر الذى يستطيع به إنسان تصوير شخصيته فى حين أن الآخر — أفقده هذا العنصر

لا يستطيع أن يبرزها فيما ينشئ .. نكون قد ظفرنا بهذه الميزة التي نعتمد عليها في تحديد الأدب .

ويمكن معرفة ذلك حين نوازن بين هذه الكتب العلمية التي أشتمل على الحقائق الخالدة وبين القصيدة التي تخلو من هذه الحقائق ، وهي مع ذلك أدب خالد لا يبلى ، فما الخاصة التي نجدها في القصيدة ولا نجدها في الكتاب أو المقالة العلمية ؟ تلك أن القصيدة تعتمد على العاطفة Emotion ولكن المقالة تعتمد على العقل Intellect وهنا نكون قد وقعنا على الميزة التي نبحث عنها منذ حين : فهي أن إثارة العواطف هي التي تكسب الأثر قيمة خالدة فيظفر من ذلك بصفته الأدبية .

ولكن كيف تكون العاطفة سبب خلود الآثار الأدبية ؟

من الغريب أن سبب ذلك هو سرعة زوال العاطفة — وهذا نوع من التناقض الوهمي — هذه السرعة هي التي تجعل الأثر الأدبي ذا قيمة خالدة .

ولتوضيح ذلك يجب أن نلاحظ الفارق بين العلم والعاطفة من حيث صلتها بالنفس الإنسانية ، إذ كان باقياً وكانت هي زائلة ، فإذا ألمنا بمعارف عقلية أضفناها إلى معارفنا السابقة وقلمنا ننسأها ، وعلى أية حال فلن نحصر على قراءتها ثانياً ، وكثيراً ما نهمل الكتب التي تحتويها . أما العاطفة الحزينة مثلاً التي تثيرها في نفسى مرثية أبي العلاء

غَيْرُ مُجْدٍ فِي مِلَّتِي وَاعْتِقَادِي      نَوْحُ بَاكِ وَلَا تَرْتُمُ شَادٍ

فإنها تزول من نفسى بعد مدة ، ولا يبقى الحزن مسيطراً عليها أبداً ، ولكن هذه العاطفة الحزينة تتجدد في نفسى كلما قرأت هذه القصيدة ، وقد تكون درجتها أقل عقب المرة الثانية أو الثالثة ، ومع هذا فهي متجددة على كل حال ، والأمور المهم أنه لا بد من قراءة هذه المرثية نفسها لبعث هذه العاطفة بالذات ، فإن تسد مسدها مرثية أخرى لابن الرومي أو أبي تمام أو شوقي ، ذلك لأن عاطفة المعري

من طراز خاص به فكانت مريثته لازمة لى أبداً . وهذا معنى خلود الأدب وعدم الاستغناء عنه فإذا كان النص الأدبي من النوع المتوسط قراءته مرات ، وأما إذا كان من الأدب العظيم فإنه يقرأ دائماً ولا يزيد التكرار إلا رواجاً وجمالاً ، ويصبح حاجة لازمة لكل إنسان . وهذا هو الشأن فى القرآن الكريم .

نستطيع أن نمثل لهذه المسألة بمثال حسى بسيط فهذا شراب البرتقال تلذه بما تحس من طعمه ورأحتيه ، وهذه اللذة تزول حتماً بعد مدة ما ، فتجدك راجعاً إلى هذا الشراب للظفر بهذه اللذة نفسها ، ثم تزول فتجدها وهكذا . والمهم أن هذا الشراب لا يعينك عن شراب الليمون أو عن نوع آخر من البرتقال ، فالشراب خالد بالنسبة لمتعتك الخاصة .

وإنما لهذا الكلام السابق نقف عند هذه العاطفة الأدبية من حيث صلتها بخلود الأدب من وجه ، وبدالاتها على شخصية الأديب من وجه آخر ؛ فإن اعتماد الأدب على العاطفة هو الذى يبعث فيه الخلود على مرّ العصور ، ولكن قيام العلم على العقل وحده لا يضمن لكتبه الخلود بهذا المعنى السابق . فإذا بحثت عن السر فى خلود هوميرو وجدته فى اعتماده على تصوير العواطف المختلفة ، ولا شك أن عواطف الناس من حب وبغض وحاسة وغيره باقية لا تزول مهما يطرأ عليها من الاستحالة فى بواعثها وفى درجة قوتها أو ظواهرها فكان الكلام الذى يعبر عنها أو يبعثها خالداً ما بقيت فى النفوس قوى الانفعال . . بخلاف العقل الإنسانى فإنه سريع الرقى دائم التحول تمحو آثاره اللاحقة ما سبقها من معارف وتعقّن عليها منكراً ساخرة ؛ فهذه الآراء فى شكل الأرض ونظام الكواكب وتعليل الظواهر الطبيعية ، كم تغيرت وكم ذهب منها بين السخرية والنسيان ! لماذا نطمئن إلى الشعر الجاهلى ، ونعجب بالأدب العباسى والأندلسى ، ولا نمل قراءة البحترى والشريف الرضى والمتنبى وأبى العلاء ؟ لأننا نجد فى هذه الآثار أصول عواطفنا

ومظاهر شعورنا وأهواء نفوسنا فنطمئن إليها اقرب ما بيننا وبينها على بعد هذا الزمن السحيق ، فإذا ما وقفنا على آراء هـ هذه العصور في الهيئة والطبيعة والكيمياء سخرنا بأكثرها وأنكرناها . لماذا ؟ لأن العقل تقدم فغير هذه الآراء وأبعد المسافة بيننا وبين أصحابها في التفكير .

أثر العاطفة في الأدب حمل الأستاذ ديكوني De Quincey على أن يتخذها مميزة لنوع خاص من الأدب يسميه أدب القوة . وخلاصة ما ذهب إليه <sup>(١)</sup> أن الآثار الكتابية نوعان : نوع يرمى إلى المعرفة ونوع يقصد إلى القوة ، فالأول أدب الثقافة ، والثاني أدب القوة ، وظيفة الأول للتعليم ، ووظيفة الثاني التجريك ، الأول دفة السفينة والثاني شراعها ، الأول يعنى بالفهم والاستدلال ، والثاني يتصل بالإدراك الأسى القائم على العواطف واعلمه يريد بالنوع الأول مقالات الفلسفة والتاريخ والاقتصاد والقانون من كل ما يرمى إلى تزويد القراء بالحقائق وشرح الشؤون الاجتماعية . وسأرى فيما يلي — وكما مر بك — أننا نستطيع إضافة هذا القسم إلى الأدب بمعناه العام . على أن من الباحثين من يناقش هذا الرأي من أساسه فيقول : إن العاطفة هي الميزة التي تفصل الأدب من سواء ، غاية ما في الأمر أنها تختلف درجاتها باختلاف الآثار فتوجد قوية في الشعر والوصف والقصة مثلاً وتوجد ثانوية في مثل هذه الموضوعات التي ترمى إلى التعليم وهي لا تخلو في أصلها من آثار العاطفة ، وسيمر بك تفصيل في ذلك .

وأما عن صلة العاطفة الأدبية بشخصية الأديب فمن الحق أن الأدب — بسبب قيامه على العاطفة — يكون معبراً عن شخصية الأديب وأدل عليها من العلم الذي يعتمد على العقل ومدرجاته <sup>(٢)</sup> . وذلك أن هناك فرقاً — في نفس الإنسان — بين

(١) نفس المرجع — Winchester — من ٤٤ — ٤٥ هامش .

(٢) أحمد الشايب : الأسلوب ، ص ٩٧ وما بعدها ، طبعة ثانية .

القضايا العلمية التي تدركها العقول ، وبين الانفعالات التي تبعثها المؤثرات وتثيرها المشاهد . فالقضايا أو الحقائق العلمية ما دامت واضحة مفهومة تكون واحدة في كل العقول لا تكاد تختلف فيها ، فهذه المسألة : الخط المستقيم أقصر مسافة بين نقطتين ، حقيقة عقلية يدركها الناس كما هي دون أن يكون لأمزجتهم أثر في صدقها ولا في صورتها المدركة في الأذهان ، وما العلم إلا مجموعة منسقة من مثل هذه القضية تأتلف معاً فتكون كتاباً أو بحثاً أو مقالا أو جملة تجارب تقرأ وتفهم على أنها معارف تنير العقل وتنمي الثقافة ، كما نقول عن القاهرة : « إنها على ضفة النيل الشرقية شمالي القسطاط وغربي المقطم على خط العرض ٣٠ شمالا وسكانها نحو ألف ألف نسمة معظمهم مصريون ، وهي القصبة الرابعة لمصر منذ الفتح العربي ، بها آثار بديعة ومنشآت ضخمة ومعاهد علمية يؤمها الطلاب من بلاد الشرق العربي » . إلى نحو ذلك من المعارف التي تشخص القاهرة ولا تكاد تشخص كاتبها ، والتي تكاد تتشابه صورها في مداركنا جميعاً . وإذا كان هناك اختلاف في إدراكنا المسائل العلمية فإن أكثر ما يكون ذلك في الكم لا في الكيف ، أي في أن أحداً يكون أكثر إحاطة من الآخر وأوفر منه معلومات . وقد يكون ذلك في التعمق والإلمام بالعمل والبراهين ، ولو فرضنا رجلين تشابه في قوة الإدراك وفي طريقة تفهم الأشياء التي تقع تحت حسهما كانت الصورة الذهنية لكل منهما تشبه الأخرى . فإذا كانت اللغة التي تعبر عن هذه الحقائق العلمية دقيقة فأنها لا تدع مجالاً لآثار شخصية الكاتب ومظاهرها إذ كانت لغة علمية تؤدي مسائل موضوعية لا تدخل للأمرجة ولا للعواطف فيها ، ثم تأخذ الأساليب العلمية في الدقة حتى تقرب من لغة الرياضة وربما كانت لغة الجبر أدق اللغات وأصدقها تصويراً للحقائق العقلية الخالصة .

أما العواطف التي تنبعث في الإنسان بتأثير الحوادث أو المشاهد فأنها تختلف

باختلاف الأفراد ، فإذا كان من المسلم به أن الناس يتشابهون في تصور القضايا العلمية ، فمن المسلم به أيضاً أنك لا تجد اثنين يتشابهان في الحس أو الانفعال بالشئ الواحد - لاختلافهما في المزاج والطبع - سواء أكان الاختلاف في نوع العاطفة أو في درجتها قوة وضعفاً . وهنا تتقدم الشخصية الفردية فتظهر نفسها في التأثير ويقع ذلك أن تتراءى واضحة في التعبير عن هذا التأثير فينشأ من ذلك فن الأدب ، فالأهرام التي أشهدها ، أدرك حجومها وألوانها ومقاييسها والغاية منها كما يدركها جاري ، ولكنها قد تبعث في نفس إعجاباً وإكباراً لبناتها البارعين المقتدرين في حين أنها تثير في نفسه هوس خطاً وتبرماً بهولاء الفراعنة الذين أجهدوا المصريين وأعتقوهم في إقامتها شاحخة خالدة ، والمشيبي في رأى الفرزدق : تفارق شيب في الشباب لوامع وما حسن ليل ليس فيه نجوم ولكنه في رأى الشريف الرضى سيف مصلت على الرأس يبعث في النفس قلقاً ويسلبها الأمن والطمأنينة :

غالبوني عن المشيب وقالوا : لا تُرَعْ أنه رجلاه حسام  
قلت : ما أمن من على الرأس منه صارم الحسد في يد الأيام ؟  
وعلى ذلك كان الأدب لا يؤدي الحقائق كما هي خالصة ، وإنما يؤديها مع تأثيرها في نفوس الأدباء ، وبالصورة التي تكونها أمزجتهم وطريقة تناوهم الأشياء . ولما كانت شخصية المثنى تتجلى في الآثار التي تبرز فيها الحقيقة بالعاطفة ، فإن النتيجة الطبيعية لذلك أن يكون الأدب عبارة عن شخصية الأديب . وإذا كان للانفعال النفسى هذه القيمة في تمييز الأدب ، وخلوده ودلالته على شخصية كاتبه ، فقد نشأت عن ذلك مسألة الأدب وصلته بالحياة ، وهى مسألة قامت على ما قاله الأستاذ ماثيو أرنولد Matthew Arnold في تعريف الشعر من أنه نقد الحياة « Criticism of life » وهو تعريف صحيح وإن كان غامضاً ،



فإن الشعر هو نقد الشاعر للحياة ، وإنما يراد بذلك أن الشاعر يرى الحياة ويتخيلها متأثراً في ذلك بما تشيره الحياة في نفسه من عواطف ثم يحاول هو بما ينظم أن يثير في نفوسنا عواطف مشابهة لما عنده . لكن هذا الوصف ليس وفقاً على الشعر وحده بل يتناول الأدب كله ، فهو نقد الحياة أى فهمها وتفسيرها للقراء ، ولا يتيسر لكاتب تفسير الحياة دون فهمها . وينتج من ذلك أن القدرة على إثارة العواطف هى التى جعلت الأدب تفسيراً للحياة ، وهذه الحياة لا تسير طوع الحقائق والأحوال الخارجية وحدها ، وإنما تخضع أكثر الأحيان لهذه الانفعالات النفسية التى تنتج الإرادة ، وتوجهها وتؤثر فى السلوك ، وتهذب الأخلاق وتحدد مجرى الحياة ، وإذا كان الأدب يعبر عن مشاعر الكاتب ثم يبعث مثلها فى نفس القارئ ، كان بالضرورة أصدق وأعمق سجل للحياة الإنسانية .

— ٤ —

ولكن ربما يقال : إن هذا التفسير لمعنى الأدب ضيق محدود لا يتناول جميع الآثار الأدبية ، فإذا صح أن كل ما يثير العواطف نسميه أدباً ، فهل من الصحيح أيضاً أن الأدب يجب أن يكون ذا قدرة على بعث العواطف وإخراج من هذا الباب ؟ نذكر التاريخ فهو أدب لاشك فى ذلك وإن كان لا يتجه إلى العواطف . وإنما قصده الأول تقرير الحقائق وتثقيف الأذهان ، على أن هناك فوق ذلك كتباً تاريخية لا تعرض لدرس أو نقد ، بل تقف عند سرد الحوادث وتسجيل الوقائع ، خالية من حرارة الشعور وبعث الحياة ، ومعنى ذلك أن هذا التفسير الذى ذكرناه لا يشمل الأدب بمعناه العام لكنه مقصور على هذا المعنى الخاص الذى يبدو فى مآثور الشعر والنثر أى فى نحو القصيدة الرائعة والوصف البديع والقصّة الممتازة مما يعد من الفنون الرفيعة . وهو ما يسميه الغربيون

ودفعاً لهذا الاعتراض يمكن أن يقال : إنه ليس من الضروري أن تكون الميزة التي تكسب النص صفته الأدبية ، هي غرضه الأول ، وموضوعه الرئيسي فتمت استطاع الأثر اللغوي أن يبعث الانفعال كأن أدباً سواء أكانت العواطف غايته الأساسية أم كانت ثانوية أنت ممتزجة بالحقائق لتخلع عليها روعة وتبعث فيها حياة وقوة . وعلى هذا نستطيع أن نفصل في الكتابات التاريخية متى تكون أدباً ، فإذا وقفت عند سرد الحوادث الجافة دون فقه أو تحليل واتصال بينها كانت قصصاً مبعثرة أو مادة فجأة للتاريخ يعوزها المؤرخ ذو الخيال العريض والذهن الثاقب والأسلوب الرائع ليصوغها تاريخاً يفيض بالحياة ، ويعيد الماضي كما كان عهداً نشيطة مطردة الحركة والأثمار . وأما إذا كانت صورة لهذا الماضي الذي سار على قدمين من العقل المدبر والانفعال المحرك استطاعت أن تثير في القراء عواطف شتى وكانت بلا شك من باب الآداب <sup>(١)</sup> وهكذا يجب أن يفهم التاريخ فليست مهمته وفقاً على تزويدنا بالحقائق التي ذهبت في طيات الأيام الغابرة ، بل يضيف إليها الشعوب السالفة ودوافعها النفسية ؛ فيجمع بين شيئين لا بد منهما : التقرير الصادق الدقيق المنصف للأحداث والأعمال التي نهض بها رجال التاريخ إذ كان هذا هو الهدف الأول للثقافة التاريخية ، ثم بث هذه العواطف التي أدت إلى هذه الأحداث فكانت روحها وحياتها مادامت الحياة في سيرها الدائم تهتدى بالعقل المفكر ، وتعتمد على الشعور الدافع ، والتاريخ ليس شيئاً غير هذه الحياة السالفة ، ونتيجة ذلك الظفر بهذا الأدب التاريخي الذي يجمع بين العلم والفن ، ويقوم على الحقيقة والعاطفة .

على أن هذا المقياس يمكن اعتباره في المنشآت الأخرى ، فإذا كانت عقلية خالصة كالمنطق والهندسة خرجت من دائرة الأدب ، وإذا انجذبت من العاطفة

وسيلة لنشر الحقائق وقوتها ، كالنقد ، والقانون ، دخلت ميدان الأدب وهو هذا النوع الذى يرمى إلى غرض ثقافى ، وإنما يظفر بمكانة فى الأدب لاتخاذ الشعور وسيلة لتحقيق غايته التعليمية ؛ وبذلك نجدنا أمام حالات ثلاث : فإذا كان الهدف الأول للأدب إثارة العواطف حصلنا على مأثور الشعر والنثر أو ما يدعى Belles-Letters ويسميه المعاصرون الأدب بمعناه الخالص . وإذا كانت الغاية إمداد العقل بالقضايا الفكرية الخالصة حصلنا على العلم Science أما إذا كانت العواطف وسيلة لا غاية حصلنا على آثار أدبية تختلف فى درجتها الفنية باختلاف ما دخلها من الشعور والوجدان . على أن هذا القدر من الوجدان هو ما يحفظ لهذه الآثار قوتها وروعيتها . وهنا يقول الأستاذ ديكو بنسى Oe Quincey <sup>(١)</sup> يصعب عملياً التمييز بين هذين النوعين من الأدب : أدب القوة وأدب المعرفة حسبما ذهب فى تقسيمه السابق الذكر ؛ لأن الفروق بينهما صعبة التمييز وبخاصة فى كتب التاريخ والسير والرحلات والمقالات المختلفة التى هى وسط بين العلم والأدب ؛ ولكن ما قيمة هذا التقسيم الذى لا ينفع فى مثل هذا المقام ؟

إذا صح هذا التحليل الذى أوجزناه اتضح لنا أن هناك فرقاً جوهرياً بين العلم والأدب تنقسم الآثار اللغوية — على أساسه — إلى قسمين : علمى وأدبى ، كما تنقسم الأعمال الإنسانية إلى قسمين فن علمى ، وفن جميل <sup>(٢)</sup> . . . نعم إن هناك منشآت تجمع بين النوعين كالتاريخ والنقد — وقد مر القول فى ذلك — ولكننا نقيم الفرق هنا على ملاحظة الأدب الخالص والعلم الخالص ، وهو فرق ناشئ عن التباين بين الطبيعة العلمية والأدبية ، فالأولى تعنى بالاستقصاء

(١) راجع : Winchester ، ص ٥١ هامش .

(٢) راجع فى هذا الكتاب الفصل الخامس : الأدب بين العلم والفن .

والتحليل والتركيب وملاحظة الأشياء من حيث نشأتها ، ونموها ، وصلتها  
بغيرها ، وعناصرها ، كما يقف النباتى من النبات والأزهار شارحاً وظيفه كل  
جزء وصلته بغيره وأطوار حياته ونحو ذلك من الأبحاث العقلية والتجريبية  
التي تنتهى إلى قوانين علمية مقررة ، والثانية تلاحظ الأشياء من حيث صلتها  
بعواطف الانسان وما قد توقف في نفسه من شعور ووجدان . فالأزهار وجدت  
متناسقة جميلة ، وهى موجودة لمتعة الانسان ، والحياة تنتهى من حيث غايتها ،  
إلى ما فيها من جمال طبيعى أو صناعى ، والأدب يصور لنا هذا الجمال ويقدم لنا  
مسرات الحياة .

وليس العلماء هم الذين أفهمونا المعنى الصحيح للطبيعة وما يصلنا بها ، بل  
الأدباء هم الذين كشفوا لنا عن أسرارها ، وعرضوا علينا مفاتيحها واستخرجوا  
ما فيها من معان عميقة ممتازة ، هى روحها الخى الناطق : —

فالوردُ فى سررُ الفصوص مُفَتَّحٌ      متقابل يثنى على الفَتَّاح  
ضاحي المواقب فى الرياض ممَيَّزٌ      دون الزهور بشوكة وسلاح  
مرَّ التسيم بصفحتيه مُقَبَّلًا      مرَّ الشفاه على خدود ملاح<sup>(١)</sup>

وهذا يكفى للفرق بين طبيعة العالم وطبيعة الأديب من حيث تناولهما الأشياء  
فالأول يعنى بما بينهما من تشابه وتقابل ، وما تخضع له من نظريات وحقائق ،  
والكن الثانى يتجه إلى ما يصلها بطبيعتنا الوجدانية من معان وأسرار ، والتعبير عن  
الأول تعبيراً دقيقاً هو العلم ، وعن الثانى هو الأدب ، وسيأتى القول المفصل فى هذه  
المسألة<sup>(٢)</sup> . على أن هذا التباين بين الطبيعتين لا يعنى المنافاة المطلقة بين الفنون  
الكتابية أو الانفصال التام بين العلوم والآداب ، فقد رأيت أن هناك كتباً علمية  
لها صفة أدبية بما يداخلها من التوسل بالشعور ، كما أن الأدب الخالص لا يستطيع

(١) انشوقيات ، ج ٢ ص ٢٤ . (٢) فى الفصل الخامس من هذا الباب .

الحياة دون أن يتخذ من الحقائق العقلية أساساً قوياً ، وهكذا يتعاون العقل والشعور على تقويم الآثار الأدبية مهما تتفاوت عناصرها الداخلة في تكوين كل فن كتابي قصيدة أو رسالة أو مقالة أو قصة أو خطابة ، وليس من اللازم أن معرفة العالم الطبيعي لقوانين الغروب تنقص من جماله النظري إلا إذا انصرف الانتباه كله إلى هذه القوانين تاركاً هذا المشهد مع فتنه الحسية وإيحائه العميق كما أنه من الحق على الإنسان أن يحفظ التوازن ما استطاع بين موهبته الفكرية والوجدانية فيغذى كلا منهما بما يلائمها ويحفظها حياة قوية تسير الأخرى وتساعد في تقويم حياته وانسجام مواهبه ، فلا يتوى العقل وحده ويذهب بنشاط الشعور الضروري للحياة العامة ، ولا تسيطر العاطفة على النفس فتدعها مشوهة الأخلاق سطحية التفكير .

أما بعد فليست العاطفة ، على خطرها وأصالتها في هذا الفن الأدبي ، هي العنصر القذ الذي يتألف منه المنشور والمنظوم ، فهناك الحقيقة التي تعد سند العاطفة وعونها على القوة والبقاء ، وهذا ما يفرق بين الأدب والموسيقى ، فالموسيقى الخالصة تتجه إلى إثارة العاطفة مباشرة دون وساطة الأفكار ، أما الأدب فلا يستطيع أن يبعث الشعور القويم من غير معونة الأفكار القيمة التي تعدهيكلها العظمى وعماده الرفيع . وهذا في غير الموسيقى الأدبية التي ترجع أحياناً إلى قطع من النثر أو النظم وتمثل الامتزاج بينها وبين الأدب . فهذه نوع آخر مركب يوحى إلى القلب والعقل ويتمتع الآذان ، والأذهان <sup>(١)</sup> .

وإذا كانت الموسيقى الخالصة تعتمد على الألحان في تغذية العواطف وإيقاظها مباشرة فيظهر أنها تختص بهذه الميزة من بين الفنون الجميلة حتى الرسم والتصوير <sup>(٢)</sup> فانهما يعرضان علينا المظاهر الصماء التي ندرك جمالها بقولنا وتأثر بها مشاعرنا ،

(١) راجع Wenchester ص ٥٧ تجد بعض التفاصيل لهذه المسألة .

(٢) أريد بالتصوير عمل الصور أي التماثيل وهذا أولى عندي من تسميته النحت ترجمة

الكلمة ( Sculpture ) .

كلاهما يدل على شيء لا تؤديه الموسيقى بما يعبران عن فكرة عقلية ، ويرزان من صورة حسية ، والأدب — من حيث إنه فن جميل<sup>(١)</sup> — يجب أن يجمع إلى قضاياه العقلية عنايته الهامة بالمواطن وإن كانت وسيلتها فيه ليست مباشرة كاللوسيقى الخالصة ، وتأثير الأدب في المواطن يعتمد — كالرسم والتصوير — على عرض المناظر ، والصفات ، والأعمال عرضاً حسياً مجسماً ليرى القارئ في نصوصه من الألوان والأبعاد والمعاني ما يراه إذا هو نظر إلى رسم أو تبصر في تمثال والقوة التي يتم بها هذا العرض الحسى تدعى الخيال Imagination وهو كالعاطفة عنصر هام في الأدب ، ولا سيما في الفنون التي تقوى فيها العاطفة كقول البحترى في رثاء المتوكل :

ولم أنس وحش القصر إذ ربيع سربه      وإذ دُعِرَتْ أطلاؤه وجأذره  
وإذ صيبح فيه بالرحيل فهتكت      على عجل أستاره وستاره  
وقد أشرنا إلى هذا العنصر العقلى الذى يعد فى بعض الفنون الأدبية كالتاريخ الغرض الأساسى إذ يعيننا منه الدقة والانصاف والنصواب قبلما نغنى بجماله وتأثيره فإذا ما عرضنا لنقد الشعر ، وهو أسمى الصور الأدبية ، قدرنا الحقيقة المندرجة فى العاطفة وما يلابسهما كمّاً وكيفاً ، إذ لا قوة للعاطفة ولا خلود دون ما يقومها من الأفكار السديدة . تجد ذلك فى دالية المعرى مثلاً :

غيرُ مجدٍ فى مِلَّتِي واعتقادى      نوحُ باكٍ ولا ترثمُ شادٍ  
حيث يؤيد شعوره الساخط بأرائه القويمة .

وأخيراً لا يستطيع الناقد أن ينسب العبارة أو الأسلوب ، ويسميه بعض النقاد الصورة Form مقابلة للمادة المؤلفة من سائر العناصر فـالعاطفة والخيال والفكرة يجب أن تؤدى بوسيلة لفظية ملائمة وعلى وسيلة هامة لانقال مكانتها عن مادة الأدب أو معانيه لأن إيقاظ المواطن الأدبية يستند فى أكثر الأحوال على جمال

الأسلوب الذى تلبسه المعانى والأفكار إذ أن هذه - وإن كانت متوسطة تظهر بالروعة وقوة التأثير متى تسكن عباراتها موسيقية جذابة ، ومن المقرر أن أسلوب التعبير مجال للعبقرية فى الأدب وفى سائر الفنون الجميلة من رسم وتصوير وموسيقى ورقص وغناء ونقش . والناقد الماهر يقدر البراعة الفنية فى الأداء ولا يراها مصادفة طارئة بل ثمرة الطبع الموهوب والذوق المصفى .

وخلاصة هذا البحث أن الأدب ينحل إلى هذه العناصر الأربعة :

( ١ ) العاطفة Emotion وهى أهم العناصر وأقواها فى طبع الأدب بطابعه الفنى ، ولكن يجب أن نلاحظ أن الآثار الأدبية تختلف فى درجة اشتغالها على العاطفة ، فقد تكون غاية الأدب كما قد تكون وسيلة لنشر الحقائق .

( ٢ ) الخيال Imagination وبدونه يكون من العسير إيقاظ العواطف فى أغلب الأحيان .

( ٣ ) الفكرة Thought التى تعد أساساً فى كل الفنون عدا الموسيقى الخالصة ، والعنصر الرئيسى فى الفنون الإقناعية والتعليمية كالمحاضرات والمقالات ، وكتب النقد والتاريخ لأنها الغاية المقصودة .

( ٤ ) الصورة Form وهى وإن لم تكن غاية فى نفسها ، لكنها وسيلة لأداء المعانى والتعبير عن الحقائق والمشاعر ، فاستحقت عناية خاصة ، وسنجد فى الفصل التالى بعض التفصيل التطبيقي لهذه الأربعة ، كما نتناولها بالدراسة النقدية أثناء هذا الكتاب .

وليلحظ أن أى هذه العناصر لا ينفرد وحده بالتأثير الأدبي المراد وإنما يستعين الباقى ، كما أن دراسة كل منها لا تغنى اعتباره منفصلاً عن سائر ما دامت متصلة متبادلة التأثير كأعضاء الجسم إذا اعتل عضو تداعى له سائر الأعضاء .

وهنا نستطيع ، بعدما تعرفت بالأدب ، أن تعرفه بما تشاء من نحو قولك : إنه الكلام الذى يصور العقل والشعور تصويراً صادقاً . ولعل التعريف بالأدب خير من تعريفه .

## الفصل الثاني

### عناصر الأدب

نريد هنا أن ندرس عناصر الأدب درساً تطبيقياً لتبيين قيمتها وما بينها من صلات وتلازم ، ثم نتخذ من هذا الدرس وسيلة لتحليل القصيدة أو المقالة ، أو الإلهام الإجمالى بأى كتاب أدبى ، وسنجد موضوع هذا الدرس قول المتنبى من قصيدة يرثى بها والده سيف الدولة الحمدانى : —

رَمَانِي الدهرُ بِالْأَرْزَاءِ حَتَّى قُودِي فِي رِغْشَاءٍ مِنْ نَبَالٍ  
فَصُرْتُ إِذَا أَصَابَتْنِي رِسَامٌ تَكْسِرُ النَّصَالَ عَلَى النَّصَالِ  
وَهَاتِ ، فَمَا أَبَالِي بِالْأَرْزَاءِ لِأَنِّي مَا انْتَفَعْتُ بِأَنْ أَبَالِي

فأول ما تلف عند عاطفة السخط والتبرم بهذا الدهر الذى ألح على الشاعر بالأرزاء فلم يترك فى نفسه موضوعاً للناراة جديدة حتى تراكت المصائب وصارت كداساً ثقيلاً ، انتهت به إلى بأس من الشفاء واستهانة بالأحداث ما دامت المبالاة غير مجدية خيراً ولا دافعة شقاء . وهذه العاطفة نشأت فى نفس المتنبى لأن أسباب الحياة قصرت به عن نيل ما آربه وتحقيق أطماعه التى عرضته لآلام شتى وجعلت حياته رواية الجهود الخاسرة فى سبيل الآمال الضائعة .

ولعل المتنبى أراد أن يثير فى نفوس قرائه مثل هذه العاطفة الساخطة أو عاطفة الإشفاق عليه والرتاء له فماذا فعل ؟ حاول أن يشرح لنا ما حل بنفسه من الكوارث بهذه اللغة المادية التى نعرفها فى المعاجم والكتب العلمية فوجدها عاجزة عن تصوير ما بنفسه من غيظ وآلام ، فان غاية ما كان يقول : « كثرت



المصائب على حتى يثست من الراحة . وهذه العبارة على قيمتها لاتوازي ماقله هو في أبياته ، وذلك أن اللغة المعروفة إنما وضعت في الأصل للتعبير عن الحقائق والمسائل العقلية فإذا ما أراد الأديب اتخاذها لأداء الانفعالات النفسية شعر بأنها دون ما في نفسه من قوة العاطفة وحرارة الشعور ، لذلك يحاول اصطناع لغة أخرى تسمو إلى مستوى نفسه الثائرة وتستطيع تصوير ما فيها من آثار القوة الوجدانية ، فيلجأ إلى الصور التي تجسم المعاني وتنقلها إلى درجة أرقى لتزداد قوة وجمالاً ، يلجأ إلى التشبيه أو الاستعارة أو الكناية أو المبالغة أو التخيل . وهكذا فعل أبو الطيب هنا ليستطيع تصوير آلامه وأسباب تهرمه ، فالدهر في رأيه ليس شهوراً وأعواماً بل كائناً حياً ذا إرادة صارمة يكيد له فينزل به الأرزاء ، وهذه الأرزاء نبال كثرت فكان منها لفؤاده غشاء ، ويستمر فيصوّر النوازل سهماً تحل فلا تجد فيه موضعاً خاليا فتتكسر على ما سبقها إليه ، وأخيراً هان عليه الدهر أو إلحاحه فييأس ولا يبالي الرزايا لكثرتها وإلغائها لديه ، على أن المبالاة لم تغن شيئاً . هذه اللغة المخترعة أو الوسيلة البيانية التي تأخذ عناصرها من الطبيعة والأشياء وتؤلفها بطرائق التشبيه والمجاز والكناية مثلاً . هذه اللغة هي الخيال ، فهو العنصر الذي تلجأ إليه العاطفة لتعبر عن نفسها حين تعجز العبارات الأخرى دون تحقيق هذه الغاية الأدبية . فإذا قرأ الناس هذه الأبيات تيدنوا مقدار ما آدته النكبات حتى عادت لديه مألوفة وصارت حياته قصة الرزايا ، وربما صادفوا ، أو صادف بعضهم فيها لون نفسه فشارك المتنبى شعوره ، وأخذ السخط شرعته السائدة ، أو أشرب روحه الحذب على أبي الطيب والإشفاق لحاله ، وبذا يتحقق ما قلناه في الفصل السابق من أن غاية الأدب الخالص إثارة العواطف في نفوس القراء أو السامعين . فإذا وقفنا عند هذا السخط لنعرف سببه وباعثه في نفس الشاعر كنا باحثين عن دواعي العاطفة ونصيب هذه الدواعي من الصواب والحقيقة ، أو بعبارة أخرى

كنا نتبين هذا العنصر العقلي ثالث العناصر التي نرجع إليها كلام المتنبي ، فاذا بالسبب أن الدهر ضاعف مصائبه حتى فاضت بها حياته ، وتراكت حتى لاموضع الجديد ، وألحت حتى يئس من النجاة فصار الشقاء قانون حياته ، وسفته المطردة . أليس في ذلك ما يبعث السخط والتشاؤم ؟

نعم لو تجاوز النقد الأدبي نص الأبيات وذهب إلى سيرة المتنبي فاحصاً محققاً فقد يرجع على الشاعر بالملامة ، وينقض ما ادعى وقرر ، ولكننا لسنا بعرض القول في نحو ذلك الآن فلنتركه إلى موضعه من هذه الفصول .

وأخيراً نقف عند الأسلوب أو هذه العبارات التي أدت هذه المعاني وسجلتها هذا التسجيل الخالد ؟ فنقرر أن هذا الأسلوب من أليق الأساليب ليث هذه الشكاة . وذلك أن هذه العاطفة ، فوق قوتها ، أو لقوتها ، هي موسيقا نفسية ، ذات حركات وترجيعات كثيراً ما تبدو آثارها في جسم الإنسان بسطاً وقبضاً واضطراباً في تيارات الدم وحركات الأعضاء فكان لابد لهذه اللغة التي تؤديها أن تكون مثلها ذات أنغام مختلفة ومقاييس متباينة ، فكانت الكلام المنظوم من بحر الوافر ، وكان الوزن هو التعبير الطبعي عن هذه العاطفة الساخطة<sup>(١)</sup> وكثيراً ما يعجز الدثر عن هذا التعبير العنيف السريع لأن طبيعته الأولى عقلية هادئة بطيئة<sup>(٢)</sup> .

يظهر لنا من هذا التحليل العملي أن العاطفة أهم العناصر وأقواها تأثيراً في سائرها إذ خلقت الخيال وضاعفت صورته ثم أحيت الحقائق وزادت روعتها ووضوحها ، واستوجبت هذه اللغة الموسيقية الجميلة ، ثم هذا التلازم بين هذه العناصر فليس يستغنى أحدها عن الباقي سواء في وجوده ودخوله فن الأدب وفي قيمته ومكانته التي يكسبها بمعونة سواء .

ونذكر هنا مثالا آخر نثراً — رسالة عبد الحميد الكاتب إلى أهله وهو منهزم

(١) أحمد الشايب : الأسلوب ، ص ٤٩ و ٥٦ طبعة ثانية .

(٢) نفس المرجع ، ص ٧٣ .

مع مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين : « أما بعد فإن الله تعالى جعل الدنيا محفوفة بالكفر والسرور ، فمن ساعده الحظ فيها سكن إليها ، ومن عضته بنابها ذمها ساخطاً عليها . وقد كانت أذاقتنا أفوايق استحليناها ، ثم جمحت بنا نافرة ، ورمحتنا مؤلّية فملح عذبها وخشن لينها فأبعدتنا عن الأوطان ، وفرقتنا عن الإخوان ، فلدار نازحة ، والطير بارحة . وقد كتبتُ الأيام تزيدنا منكم بعداً وإليكم وجداً ، فإن تم البلية إلى أقصى مدتها يكن آخر العهد بكم وبنا ، وإن يلحقنا ظفر جارح من أظفار أعدائنا نرجع إليكم بذل الأسار والذل شرّ جار ، أسأل الله الذي يعز من يشاء ويذل من يشاء أن يهب لي ولكم ألفة جامعة في دار آمنة تجمع سلامة الأبدان والأديان فإنه رب العالمين وأرحم الراحمين <sup>(١)</sup> » .

فالعاطفة الشائعة في هذه الرسالة هي الحسرة الناشئة عن العز الفاتت والنحس اللاحق من جراء ما تغيرت الأحوال وتفرق الأهل والخلان ، وما قد يلحق من ذل الأسار . وهي عاطفة لاشك صادقة جعلت الرسالة تبعث في النفوس الأسمى والحزن لما نال الخليفة وكاتبه الأمين .

وقد استلزمت العاطفة ، كما قلنا ، هذا الخيال المصور ليعبرها واضحة قوية فالدنيا مزيج من الخير والشر ، تشبه الناقة تكون أليفة مواتية ثم تنقلب جامحة نافرة ويستمر فاذا الذل جار شرير ، وإذا به يتمنى السلامة واجتماع الشمل ولكن هيهات .

وأما الحقائق والأفكار فقد امتازت هنا بالصدق الخالص وحسن التنسيق المنطق ، وإن لم تكن مبتكرة جديدة ، فقد ألم بالوقائع وأيدها بالتجارب المقررة ثم أتبعها بشر ما يفرضه الخائف ، وخير ما يتمناه المشرّد الطريد ، واستطاع بهذه الحقائق أن يهيج في النفوس شعوراً صادقاً عميقاً . ولعل هذه العناصر المعنوية لا تؤدى بأحسن من هذه العبارات الواضحة الجميلة . نعم إن هذا الأسلوب خال من وزن الشعر ولكنه لم يخل من الموسيقى اللفظية التي هي صدى لما في النفس

من أسى وأحزان ، تحسها في حسن التقسيم ، والسجع ، والمقابلة ، وحسن الختام <sup>(١)</sup> .

\* \* \*

هذا النموذج الذي أجملناه في تحليل الشعر والنثر يمكن الانتفاع به حين نحاول تحليل قصيدة أو مقال أو قصة أو كتاب ، وسنخذ رثاء البحترى للمتوكل <sup>(٢)</sup> مثلاً لنحله ليقاس عليه غيره من القصيد .

هناك مسائل يجب الإلمام بها أولاً ، لأنها تتصل بالقصيدة اتصالاً مباشراً وتشرح كثيراً من معانيها ، وتلقى ضوءاً على جوانب أشار إليها البحترى دون أن يفصلها وهذه المسائل تصور بيئة القصيدة أو عناصرها الخارجية :

أولها : ولاية العهد في الدولة العباسية وما كان لها من صلة بمصرع الخليفة المتوكل على الله عاشر الخلفاء العباسيين ، فإن هذا الخليفة قد عهد من بعده لأولاده الثلاثة المنتصر ، والمعتز ، والمؤيد ، وقسم بينهم البلاد الإسلامية <sup>(٣)</sup> وحدث أن انحرف الخليفة عن المنتصر بإعزاز وزيره عبد الله بن خاقان ونديمه الفتح بن خاقان ، وحاول الفتك به أو إقصاءه عن شؤون الملك ، فاتفق المنتصر مع زعماء الأتراك وفتكوا بالخليفة نفسه ، نجد ذلك في الأبيات ١٣ — ٢٦ ولا سيما قوله :

وهل أرتجى أن يطلبَ الدمَ وائرَ يدَ الدهرِ ، والمتورُّ بالدمِ وائرُهُ ؟  
أكانَ وليَّ العهدِ أضمرَ غمْدَةً فَمِنْ عَجَبٍ أنْ وُلِّيَ العهدَ غادرُهُ

ثانيها : العنصر التركي وما كان له من سلطان على الخلافة والخلفاء ، وكان المعتصم ثامن هؤلاء الخلفاء قد استكثر من غلمان الأتراك واتخذ منهم جيشاً يستعين به على الجيش العربي ، فزاد نفوذهم على عهد المتوكل حتى برم بهم وبقوادهم الكبار وحاول التخلص منهم ، فمالوا إلى المنتصر وكانوا سنده في قتل أبيه <sup>(٤)</sup> .

(١) راجع في الكلام على الوزن النثرى كتاب الأسلوب لأحمد الشايب ص ٤٨ — ٤٩ طبعة ثانية .

(٢) ديوان البحترى : ج ١ ، ص ٢١٥ ، طبعة هندية .

(٣) و (٤) راجع محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية لمؤلفه محمد الحضرى ، سيرة المعتصم والمتوكل .

ثالثها : ما كان من مكانة الخلافة الاسلامية ، وقصر الخلافة ، ثم هذه الصلة الوثيقة التي كانت بين المتوكل ووزيره ونديمه الفتح بن خاقان الذي قتل معه ، ثم البحترى الذى شهد هذا المصراع واسكنه نجا منه ، وذلك كله واضح صريح فى آيات القصيدة لا يحتاج إلى تنبيه .

بعد ذلك ننتقل إلى متن القصيدة للامام بعناصرها الداخلية من عاطفة وخيال وفكرة وعبرة .

( ١ ) العاطفة العامة هى الحزن الذى سيطر على نفس الشاعر فبشبه فى مرثيته ، ولكن هذا الحزن العام اتخذ ألواناً مختلفة ، أوسعها حسرة على قصر تحرب بعد عمران وسكنى أنجلوا عنه ، وخلافة جليلة انتهكت حرمتها ، وخليفة لم تنفعه جنوده وغاب عنه أعوانه ، وعجز جلساؤه وندماؤه ، وعجب لغدر الابن بأبيه واستعانة الأجنبي على القريب ، وسخط على هؤلاء المعتدين ، ورغبة ألا ينعم أحدهم بتراث الخليفة وأن أمور الخلافة تؤول إلى عاقل من بنيهِ . فالعاطفة هنا أشبه بالنغمة العامة التى تسمعها من الأدوات الموسيقية معاً مهما تختلف الألحان بين الأدوات منفردة .

( ٢ ) وقد امتاز البحترى فى هذه القصيدة بحسن الخيال وبخاصة فى مطلعها ، إذ عرض المشاهد الأليمة التى أعقبت مصراع الخليفة واتخذ منها وسيلة لتصوير الفاجعة وبث الحسرة والأسى فوق إلى حد كبير سالكا فى ذلك المذهب التحليلي معتمداً على فنون بيانية قوية من تشبيه واستعارة ومقابلة حتى قال :

ولم أنسَ وحشَ القصرِ إذ ربيع سربه      وإذ دُعرت أطلاؤه وجأ ذُره  
وإذ صبح فيه بالرحيل فهنكتُ      على عجلٍ أَسْتارُهُ وستارهِ  
ثم عُنَى بعرض الصور التى تلام هذه الحادثة ، فالريح مجدة فى تغنية القصر وقد دُعِر ساكنه ، وهنكتُ أَسْتارُهُ وذَهبت طلاقة الخلافة وبشاشتها ، وهذه

السيوف تتقاضى الميت حشاشته والموت حُمرًا أظافره إلى آخر ما صنع من خيال .  
( ٣ ) وأما الأفسكار التي سند بها العاطفة فتخلص في عدوان الابن على  
أبيه ، واتهمه به مع الأجنبي وذهاب روعة الخلافة وبهجة العصر وعدم غناء  
الجيوش والحجاب وأن الخلافة يجب أن تستقر في رجل حكيم من نسل  
الخليفة المقتول .

هذه هي العناصر التي تنحل إليها القصيدة ، وللمنقد الأدبي ملاحظات على  
كل منها ليس هنا موضع إيرادها فلنتركها إلى مكانها من الفصول الآتية .  
كذلك إذا كان الذي أمامنا كتاب ، فالتنا نسل في تحليله مسلوكا يشبه  
هذا مع ملاحظة طبيعة الموضوع الذي يتناوله . فلو كان كتاب « في الأدب  
الجاهلي » للأستاذ طه حسين ، رأيت أن أهم ما فيه الآراء والنظريات التي  
بسطها المؤلف من بيان مناهج الدراسة الأدبية ونظرية انتحال الشعر الجاهلي  
ومقاييس نقده ، وتأخر النثر في الحياة عن الشعر والانتهاه إلى أن التاريخ اليقيني  
للأدب العربي يبدأ بالقرآن الكريم . وبلى ذلك هذا الأسلوب الواضح القوي  
الجميل الذي عرض به آراءه عرضاً رائعاً لا يجارى فيه ، ثم شعور الحاسة لمذهبه  
التي ظهرت بمظهر التحدى للمحافظين والازدراء بتجرهم والاعتزاز بالنفس ،  
وأخيراً لم يخل الكتاب من صور خيالية جميلة تلائم هذه العاطفة .

وأما قيمة هذه الآراء من الناحية العلمية الموضوعية فالكلام فيها يطول ،  
وليس هنا مجال ذلك ، فليطلبها الباحث في مظانها أو ليجد في دراسة هذه المسائل  
لعله يحسن تقويمها والانتهاه فيها إلى رأى مقبول .

## الفصل الثالث

### أقسام الأدب

عرف الجاهليون الشعر ولا حظوا ما يختص به من تأثير قوى ، عمدته أسلوبه الموسيقي وانفعاله الصادق ، فاعتبروه قسماً خاصاً من الكلام أو الأدب . ثم عرفوا مع ذلك أو بعده الخطابة ولا حظوا اعتمادها على هيئة الخطيب الجسيمة فوق حاجتها الدائمة ، وعاطفتها الصادقة ، وعبارتها القوية ، فعدوها قسماً خاصاً آخر من الأدب له مواقفه ورجاله ، وبين هذين وجد نوع آخر من الكلام لا يلتزم موسيقا الشعر ولا نظام الخطابة ، يعتمد على العقل الخالص أو يشرك معه الوجدان يتناول شئون الحياة الاجتماعية ويجمع القصص والأمثال والحكم ، فشعروا بأنه نوع ثالث غير ذينك القسمين ، وهكذا وجد في العصر الجاهلي هذه الأقسام الثلاثة : الشعر ، والخطابة ، والحديث . وطبعاً لم يكن الجاهليون يفرقون بينها بهذه الحدود المنطقية ولا الفروق الاصطلاحية الحديثة ، ومع هذا فقد كان التقسيم فيما يظهر ، قائماً على ملاحظات ليست أقل في دقتها عن هذه التعاريف وربما كانت أساساً لها وخيراً ما فيها ، حتى رأينا بعض المعاصرين لا يكتفى بتقسيم الكلام إلى شعر ونثر ، وإنما يقسمه إلى شعر وخطابة وكتابة<sup>(١)</sup> ملاحظاً طبيعة هذه الفنون وأساليبها وما يلابسها من نظام ، والكتابة هي الحديث عند الجاهليين أو ما يقرب منه .

فلما جاء القرآن الكريم وكان ممتازاً بفواصله الجديدة ، وأسلوبه القوى ، وبلاغته الخارقة ، وتأثيره الرائع ، دهش له العرب ، واضطربوا أمامه : كيف يصفونه ، وماذا يقولون فيه وقد خالف المؤلف لهم من الفنون القولية ، فقالوا مرة

(١) طه حسين : من حديث الشعر والنثر ، ص ٦٠ — ٦١ .

إنه شعر وأخرى سحر ، وثالثة أساطير الأولين ، إلى غير ذلك مما حكاه القرآن نفسه . وذلك أنهم وجدوا فيه فناً جديداً لا هو شعر لعدم التزامه الوزن والقافية ولا يلتزم طريقة السكهان ولا أصاليب المتكلمين فيكون خطابة ، وهو بعد ذلك فوق مستوى قصصهم وأحاديثهم ، وأخيراً عرفوا له الإعجاز فسكتوا يأسين ولم يقلدوه فبقى فناً فذا ممتازا ، وإن كان الشعور العام أنه نثر أو كلام من باب المنشور على أن ميزة القرآن في فواصله ، وابتداءاته ، وتقسيمه الموسيقي ، وتنوع فنونه ، ووحدته العامة المنتهية بالتوحيد — حملت بعض الباحثين أن يعتبروا القرآن الكريم قسماً وحده من الكلام غير النظم والنثر ، بما فيه الكتابة والخطابة<sup>(١)</sup> ومعنى ذلك أن يكون العرب إبان ظهور الاسلام قد عرفوا الشعر والخطابة والحديث والقرآن الكريم . وكل منها له خواصه وطبيعته التي يدركونها بعقولهم وأذواقهم وإن لم يدونوا ذلك في نظام علمي ولا حدود منطقية .

ثم ظهرت الكتابة ، وكان التدوين والتأليف لقيد ثمرات القرائح والعقول وتنوع ذلك ، فكانت منه الرسائل ، والمقامات ، والفصول ، والكتب العلمية ، والمترجمات الفارسية واليونانية والهندية ، ولكنها كانت جميعاً من باب واحد هو الكلام المنشور والقرن الذي صار منذ القرن الثاني باباً هاماً جداً من الأدب وسجلاً حافلاً بما أخرجت الحضارة الاسلامية من علوم ، وفنون ، وآداب وفلسفات . وبهذا ازدهر النثر وכלت الأنواع الرئيسية للكلام العربي . وليس من شك في أنهم لاحظوا الفروق بين هذه الفنون النثرية ووضعوا لها القوانين وألقوا فيها الكتب القيمة . فكلام يتناول الفلسفة والكيمياء والرياضة والطبيعة له كتبه ورجاله وموضوعاته وطبيعته العقلية الخالصة وعباراته العلمية الدقيقة ، وكلام آخر يعنى بتصوير العقل والشعور ويقصد إلى التأثير والإفادة فتكون منه الرسائل

(١) طه حسين : من حديث الشعر والنثر ، ص ٣٠ — ٣٢ .



والمقامات ، والقصص ؛ وكتب النقد ، وله رجاله وطبيعته الفنية وعباراته الأدبية الجميلة ، كما لاحظوا الفرق بين الفنون النثرية والأدبية من مقامات ، وقصة ورسالة ، وتأليف .

وكان هذا التقسيم طبيعيا ومعقولا لولا أنهم عادوا فوقفوا عند الوزن والقافية — مجازاة للعروضين — واتخذوا منها أساساً لتقسيم الكلام الى نظم ونثر . ودخلت الكتابة ، والخطابة ، والمقامة ، والمناظرة ، في هذا القسم الثانى طوعا لهذه الظاهرة اللفظية <sup>(١)</sup> على أنهم لو دققوا فى الظواهر اللفظية لكل فن من فنون النثر ، واستخدموها فى التمييز بينها لبقيت لهم قسمتهم ونجوا من تحكم العروضيين . ومهما يكن من شىء فقد بقى هذا النظام إلى العصر الحالى ، وانقسم الأدب الى منشور ومنظوم .

فلما كانت النهضة الحديثة فى مصر والشرق العربى ، ونشطت دراسة النقد الأدبى ، وظهر الباحثون على مذاهب الغربيين فى فهم الأدب وتقسيمه حاولوا أن يذهبوا فى تقسيم الأدب مذهباً أو مذاهب حديثة ، ولكنها لا تخرج فى حقيقتها عما رأى الأقدمون من أقسام . لاحظ المعاصرون فى تقسيمهم عناصر الأدب التى تناولناها فى الفصلين السابقين ، كما لاحظوا الفروق اللفظية التى تلزم فنا من الفنون ، وأخيرا الموضوعات التى يتناولها كل قسم من الأقسام .

١ — لاحظوا أن هناك كلاما يعتمد فى تكوينه على الخيال الجميل ويقصد الى إثارة العواطف ، وامتناع النفوس كالتقصيدة الجيدة والرسالة البديعة ، والوصف الرائع ، والخطابة المؤثرة فسموه الأدب بمعناه الخاص اذا كان فنا جميلا كالرسم والتصوير والموسيقا ويقابل Belles-Lettres عند الغربيين . وهناك كلام آخر

---

(١) راجع نقد الشعر ، ونقد النثر لقدامة ، ومقدمة العمدة لابن رشيق . ومقدمة ابن خلدون : فصل فى اقسام الكلام الى فنى : النظم والنثر .

يغلب عليه العنصر العقلي والحقائق العلمية ويرمى الى تثقيف الانسان وتزويده بالمسائل والآراء أيا كان موضوعها ، كالتاريخ والجغرافيا والقانون والفلسفة والعلوم الرياضية والطبيعية ، فسموه مع سابقه أدبا بالمعنى العام وهذا ما يدل عليه الغربيون أحيانا بكلمة Literature . والأصل أن هذه الكلمة الأخيرة لها عند الفرنجة معنيان ، المعنى الخاص السابق ، وهذا المعنى العام أيضاً ، فاذا كنا نضع آثار الشعراء ، والكتب ، والخطباء والقصص في القسم الأول فاننا نضعهم ونضع معهم العلماء والفلاسفة في القسم الثانى . وبهذا المعنى أنشئ القسم الأدبى قبل بالتعليم الثانوى المصرى وبمدرسة المعلمين العليا . ثم أنشئت كلية الآداب فى الجامعة المصرية حديثاً . وقد جاء فى تقرير العميد — الأستاذ طه حسين — المرفوع إلى لجنة سياسة التعليم العامة مانصه : « كلية الآداب كما يسميها الفرنسيون أو كلية الفلسفة كما يسميها الألمان أو كلية الفنون كما يسميها الانجليز قسم من أقسام الجامعة يعنى بدراسة أنواع من العلم متشابهة فيما بينها تكون مجموعة يمكن أن تكون ذات وحدة حقيقية ، فهى تبحث فى حقيقة الأمر عن الناحية المعنوية العقلية لحياة الانسان : تبحث عن العقل وقوانينه فى المعرفة والتفكير والاستنباط فتكون فلسفة ، وتبحث عن مظاهر الحسّن والعاطفة فى اللغة فتكون أدباً ، وتبحث عن الصلة بين قديم الحياة وجديدها فتكون تاريخاً ، وتبحث عن العلاقات المكانية بين الجماعات فتكون الجغرافيا ، وهى على هذا النحو تتناول وجوهاً من حياة الانسان متشابهة فى مناهج البحث وطرق التعبير والأداء فتكون هذه العلوم والفنون الكثيرة التى اتفقت نظم التعليم على أن تجمعها فى هذا القسم من الجامعة الذى يسمى كلية الآداب . »

ولكن الأستاذ أحمد ضيف<sup>(١)</sup> رأى منسذ حين أن كلمة « أدب

(١) مقدمة لدراسة بلاغة العرب ص ٢١ ثم بلاغة العرب فى الأندلس حيث يضع كلمة بلاغة مكان كلمة أدب .

اختلفت عليها المعاني في اللغة العربية فزادتها إيهاما ، وصارت لاتصلح للدلالة بدقة على « الكلام الذى يدعو الى الاعجاب من حيث الافتنان في الصناعة » وجرى على أن يسمى ذلك بلاغة فهي عنده « الكلام الفنى الممتع » أو هي ما يسميه المعاصرون الأدب بمعناه الخاص ونحن وان كننا نعرف أنه لامشاحة في الاصطلاح لا نرى ضرورة لهذا التغيير فلتبقى كلمة البلاغة كما انتهت اليه في وضعها لتدل على هذا العلم الأدبي المعروف ولتبقى كلمة الأدب دالة على النصوص التي تصور العقل والشعور ، ثم يكون الأدب خاصا وعاما أو كما سماه ديكونسى أدب القوة وأدب المعرفة كما أسلفنا . على أن البلاغة إذا كانت فنا أى كلاما بليغا مطابقا لمقتضى الحال<sup>(١)</sup> فلا زلنا نلحظ فرقا بينها وبين الادب ، فالبلاغة لابدأن تراعى الخطابين وما يلابسهم من أحوال لتكون في مستوى كفاياتهم ، ولكن الاصل في الادب صدق التعبير عن نفس الاديب ، والاجادة في تصوير شخصيته .

٢ - ثم نظروا إلى موضوع الأدب فقسموه على أساسه قسمين إنشائي ووصفي<sup>(٢)</sup> وهم هنا أيضا لايفسون هذه العناصر التي مر ذكرها والتي يبقى سلطانها نافذا في هذا التقسيم . فإذا كان الكلام معبرا عن الطبيعة تعبيرا مباشرا كان هو الادب الانشائي وذلك عندما يصور العواطف الانسانية من فرح وحزن وحب وبغض وحماسة واعجاب وازدراء فتثير أمشالها في نفوس القراء والسامعين أو عندما يصف مشاهد الطبيعة وآثارها من رعد وبرق وأمطار وجبال ورُبى ووهاد وأزهار وأشجار وزلازل وبراكين وبحار وأنهار ليفسرهما ويظهر ما فيها من أسباب الجمال وأسرار المعاني . وهذا النوع كما ترى ذاتي ( Subjective ) لأنه معرض لشخصية الانسان حيث نراها أو نرى الحياة كما تفسرها وتلونها .

(١) راجع في ذلك كتاب الأسلوب لأحمد الشايب ، ص ١٠ و ١٩ الطبعة الثانية .

(٢) طه حسين : في الأدب الجاهلي ، ص ٣٦ طبعة ثالثة .

ونستطيع أن نقول هنا : إن موضوع الأدب الانشائي هو الطبيعة والانسان يتخذهما الشاعر والناثر موضوعاً للتخييل والتفسير .

وأما حينما ينتظر الكاتب هؤلاء الأدباء المنشئين ليفرغوا من كلامهم ، ثم ينظر فيه ليرى رأيه شارحاً ناقداً فهذا هو الأدب الوصفى . ومعنى هذا أن الأدب الوصفى لا يتناول الطبيعة والانسان مباشرة ، وإنما يراها فيما كتب الكتاب ويتخذ من هذه القصائد والخطب والرسائل والقصص موضوعاً لآرائه الحسنة أو السيئة ، ولتعلييل ما يرى ويحكم . وهذا النوع الثانى يكاد يكون موضوعياً Objective لأنه مقيد بما قال الآخرون وإن لم يخل من حكم الذوق وآثار الشخصية ومن محاولة التأثير فى القراء أو السامعين لعلمهم يرون ما يرى الناقد .

( ٣ ) ثم يعودون فيقسمون الأدب الانشائي إلى شعر ونثر ، والوصفى الى نقد أدبى وتاريخ أدب ، معتمدين فى هذا التقسيم أيضاً على هذه العناصر الأدبية ومقدار ما يحويها منها كل قسم . فالشعر يمتاز من النثر بميزات شتى منها لغته الموسيقية الممتازة بالوزن والقافية ، واعتماده على العاطفة أكثر من النثر ، ولذلك كانت مظاهر الخيال فيه كثيرة ، وإذا كان الشعر يرمى فى الأصل والأكثر إلى التأثير وإثارة الوجدان فإن النثر فى الأكثر والأصل يرمى إلى الافادة وتغذية العقل<sup>(١)</sup> وهكذا لكل منهما خواصه الغالبة وإن لم يكن بينهما منافاة مطلقة ، وإن تقدم الشعر على النثر فى الوجود . كذلك الأدب الوصفى يقف أحياناً عند الشعر والنثر الإنشائيين فيتبين ما فيهما من مظاهر القوة والجمال أو الضعف والعيب ، ويعمل ما يرى معتمداً على ذوق الناقد المصنف ودراسته العميقة الواسعة . فيكون من ذلك النقد الأدبى تعدد نشأته فى جميع البيئات ظاهرة طبيعية مادام هناك أدب ينشأ ، وأناس يقرءونه أو يستمعون إليه فيؤثر فى نفوسهم آثاراً مختلفة هي

(١) أحمد النايب : الأسلوب ، ص ٤٦ طبعة ثانية .

آساس الأحكام النقدية . فاذا ما حرص على هذا النقد وأخذ يضيف إليه شرح الأسباب التي أكتسبت الأدب صفاته الخاصة في كل عصر ، ويلم بالمؤثرات العلمية والفنية والطبعية التي أثرت في نصوصه فحدث لها تغير واستحالة في البيئات المختلفة ، ثم يعنى بحياة وآثار النابهين من الأدباء في هذه العصور ، كان من ذلك تاريخ الأدب . وهو على حد ذاته يعد من أهم الأبحاث التي تعنى بها الأمم الراقية إذ كان قصة الحياة في أروع صورها وأعمق حالاتها .

( ٤ ) وأخيراً نرى الشعر قصصاً وغناء وتمثيلاً ، والفناء مدح وهجاء ، ووصف ورثاء ونسيب وحاسة إلى غير ذلك ، والتمثيل فكاهى وحزين . ثم نرى النثر خطابة ومقالة وقصة ومقامة ورسالة ومناظرة ومحاضرة إلى غير ذلك مما تجده في كتب البلاغة<sup>(١)</sup> والنقد الأدبي ، وفي النصوص الأدبية المنتشرة .

\* \* \*

وواضح أن الغاية من كثرة الأقسام تسهيل الدرس وتيسير التعليم للناشئين ثم الإشارة إلى ما لكل قسم من خواص في ألفاظه ومعانيه وموضوعاته وغايته . وأنت إذا أنعمت النظر في كل ذلك أرجعته إلى مقدار ما يظفر به كل قسم من العناصر الأدبية السالفة الذكر ، وهذا المقدار تحدده الغاية من كل فن منها . وسيمر بك في الفصول الآتية إيضاح كثير مما أجملناه هنا فلتنتظر .

## الفصل الرابع

### علوم الأدب

أول ما يجب أن نلتفت إليه هنا هذا الفرق بين الأدب وعلوم الأدب ، فالأدب كما رأينا قبلاً هو الكلام الذى يعبر عن العقل والعاطفة ، وهو بهذا المعنى فن جميل يشبه الموسيقى والرسم والتصوير كما يمر بك فى الفصل التالى . وأما علوم الأدب فإن المقصود منها هذه القواعد والمعارف التى يستعينها الطالب لفهم الأدب وتذوقه ، والقدرة على إنشائه ، كاللغة والنحو والبلاغة ونحوها ، وهى علوم ذات قوانين نظرية تدخل فى فصول منسقة ، وتوضع فيها الكتب المختلفة . وبذلك نعرف كيف كان القدماء لا يحرصون على الدقة حينما يطلقون لفظ الآداب على شىء من هذه العلوم النظرية كما فعل السكاكى فى مقدمة كتابه مفتاح العلوم حيث يقول : « وقد ضمنت كتابى هذا من أنواع الأدب دون نوع اللغة ما رأيته لا بد منه وهى عدة أنواع متآخدة . . . وجعلت هذا الكتاب ثلاثة أقسام : القسم الأول فى علم الصرف ، القسم الثانى فى علم النحو ، القسم الثالث فى علمى المعانى والبيان »<sup>(١)</sup> فأطلق كلمة الأدب على هذه العلوم وإن سماها أحياناً علم الأدب ، وكما فعل ابن خلدون فى مقدمته فى فصل علم الأدب وقد أشرنا إلى ذلك من قبل .

كذلك كانوا يخلطون بين الأدباء وعلماء الأدب من النحويين واللغويين ، والبلاغيين والنسابين ؛ فهذا ابن الأنبارى فى كتابه « نزهة الالباء فى طبقات الأدباء يترجم للنحويين والأدباء معاً ، ويقول عن الكلبي : « وأما هشام بن محمد

ابن السائب الكلابي فانه كان عالماً بالنسب وهو أحد علوم الأدب ، فلهذا ذكرناه في جملة الأدباء » وكذلك فعل ياقوت في مقدمة معجم الأبناء فقد قال فيها : « وجمعت في هذا الكتاب ما وقع إلى من أخبار النحويين واللغويين والنسابين والقراء المشهورين والإخباريين والمؤرخين والوراقين المعروفين والكتّاب المشهورين وأصحاب الرسائل المدونة وأرباب الخطوب المنسوبة والمعينة وكل من صنف في الأدب تصنيفاً أو جمع في فنه تأليفاً »<sup>(١)</sup> . فالأدب عند هؤلاء كلمة تطلق على علوم الأدب ، والأديب سمة لِعَارفِي هذه العلوم والمؤلفين فيها . ويقول الجرجاني في كتاب التعريفات : « الأدب عبارة عن معرفة ما يحترز به عن جميع أنواع الخطأ . » فزاد معنى الكلمة اتساعاً ، وشمل جميع القواعد النظرية التي تنظم الحياة الاجتماعية في أية نواحيها .

وقد رأينا في الفصل الأول أن كلمة الأدب تناولت منذ القرن الأول أطرافاً من هذه العلوم بداءة نشأتها ، عند ظهور مسائلها اليسيرة ، تكلمة لفهم النصوص الأدبية ونقدها . ولما تقدمت الأيام وأخذت هذه العلوم في النضج والاستقلال انفصلت عن الأدب وتكونت علوماً مستقلة بذاتها ليست من الأدب وإن كانت لازمة للأديب المنشئ والواصف على حد سواء .

استقلت اللغة في المعاجم ، واستقل النحو في كتبه ، وسار النقد والبلاغة معاً شوطاً بعيداً ثم أخذتا ينفصلان ، وكلما وضع علم من علوم هذه اللغة العربية انفصل عن الأدب في مسأله واتصل به من حيث أنه وسيلة ضرورية له ، ودخل هذه المجموعة التي تسمى حينئذ علم الأدب أو علومه أو علوم اللغة العربية ، وبقيت هذه التسمية إلى الآن .

وقد حاول السابقون أن يعرفوا الأدب بهذا المعنى العلمي — أي علوم

الأدب — فقالوا في ذلك أقوالاً شتى ، منها ما سبق للجرجاني في كتاب التعريفات ، ومنها قولهم : علم يحترز به عن الخطأ في كلام العرب لفظاً وخطأً ، وقولهم : علم يتعرف منه التفاهم عما في الضمائر بأدلة الألفاظ والكتابة ، وقول ابن خلدون : حفظ أشعار العرب وأخبارها والأخذ من كل فن بطرف . وهي تعاريف كما ترى تتناول العلوم جملة ، وتشير إلى أنها وسائل للتعبير الصحيح .

بقى أن نعرف هذه العلوم ، ما هي ؟ وكيف كانوا يقسمونها :

بعد ما تكاثرت وامتاز كل عن الباقي ، كما هو مقرر في تاريخ العلوم العربية ، تجد ابن الأنباري في طبقات الأدباء يعدها ثمانية : اللغة ، والنحو ، والتصريف ، والعروض ، والقوافي ، وصناعة الشعر ، وأخبار العرب ، وأنسابهم ، ثم يلحق بهذه الثمانية علمي الجدل في النحو وأصول النحو . ولا نعرف كيف تكون صناعة الشعر علماً من العلوم . ذلك من باب التسهيل في التعبير أو لعدم التفرقة الدقيقة عندهم بين العلم والفن . ثم يأتي الشريف الجرجاني فيقسمها أنبي عشر علماً ويذهب في ذلك مذهباً منطقياً ، ويسميا علم العربية<sup>(١)</sup> ويقول : منها أصول ومنها فروع «أما الأصول فالبحث فيها إما عن المفردات من حيث جواهرها وموادها فعلم اللغة ، ومن حيث صورها وهيئاتها فعلم الصرف ، أو من حيث انتساب بعضها إلى بعض بالاصالة والفرعية فعلم الاشتقاق . وإما عن المركبات على الإطلاق فإما باعتبار هيئاتها التركيبية وتأديتها لمعانيها الأصلية فعلم النحو ، أو باعتبار إفادتها لمعان مغايرة لأصل المعنى فعلم المعاني ، أو باعتبار كيفية تلك الإفادة في مراتب الوضوح فعلم البيان . وإما عن المركبات الموزونة فأما من حيث وزنها فعلم العروض أو من حيث أواخر أبياتها فعلم القافية . . وأما الفروع فالبحث فيها إما أن يتعلق بنقوش الكتابة فعلم الخط أو يختص بالمنظوم فالعلم المسمى بقرض الشعر (؟!) أو منشور فعلم

(١) راجع في ذلك أيضاً حاشية الحضري على ابن عقيل ، ج ١ ، ص ١٣ طبعة بولاق .



إنشاء النثر من الخطب والرسائل ، أو لا يختص بشيء منها فعلم المحاضرات ، ومنه التاريخ »<sup>(١)</sup> . وبعضهم جعل فنون الأدب خمسة عشر ، فطرح علم المحاضرات ، وزاد علم البديع ، وعلم الأمثال ، وعلم الدواوين وعلم الاستيفاء<sup>(٢)</sup> ويراد بعلم الدواوين تدوين شعر الشعراء في كتب تسمى دواوين الشعراء . وعلم الاستيفاء ما يعرف به ضبط أموال الديوان وصرفها . ولو ذهبنا في تتبع الآراء في إحصاء هذه العلوم الأدبية ، اللازمة لثقافة الأديب لوجدناها شاملة كل أنواع المعرفة الإنسانية ، ولاتهيئنا إلى ما انتهى إليه ابن خلدون حين قال عن الأدب « حفظ أشعار العرب وأخبارها والأخذ من كل علم بطرف » والحق أن الأديب ، لتكامل له الأدوات ، مضطر إلى الإلمام بالصالح بخلاصات الفكر الإنساني والاتصال بنواحي الحياة الاجتماعية والفنية والعلمية حتى يؤدي وظيفته على وجه مفيد ، إذ أن الأدب هو خلاصة للمواهب النفسية ، وسجل للحياة البشرية من جميع آفاقها ، وقد ذهبت أوقات هذا الأدب اللفظي الفارغ الذي لا يدل إلا على فقر العقول ، وجذب الخيال ، وبرود العاطفة ، وعلى تصنع أسلوبى حقير ، وأعود فأقول : إن لسكل من هذه العلوم تاريخه ، وكتبه ، ومباحثه ورجاله<sup>(٣)</sup> ويعيننى هنا أن أوجز القول فى ثلاثة منها : النقد الأدبى ، والبلاغة ، وتاريخ الأدب . ثم أشير إلى ما يدعى ثقافة الأديب .

حينما يقرأ الناس الشعر أو النثر لأديب تذشأ فى نفوسهم آثار لما قرأوا قد تكون حسنة تحبب إليهم هذا الكاتب وآثاره ، وقد تكون سيئة تبغضه إليهم فينصرفون عنه وعما ينشئ ، فهذه الآثار هى أساس النقد الأدبى ، والأصل

---

(١) مقدمة شرح المفتاح .

(٢) راجع المواهب المتحفة للشيخ حمزة فتح الله ، ج ١ ص ١٨ — ١٩ .

(٣) راجع فى ذلك الفهرست لابن النديم . وكشف الظنون للاكاتب جلبي ، وتاريخ

آداب اللغة العربية لجورجى زيدان .

لهذه الآراء والأحكام التي يصدرونها على الشعر والنثر ، فأمرؤ القيس بمجيد وصف الصيد ، وعنترة نابغة في الحاسة والحرب ، وزهير في المديح ، والنابغة في الاعتذار والأعشى في الحمريات وعمرو بن كلثوم في الفخر ، والجاحظ في التحليل والتعليل ، والمتنبي في الحكمة ، والمعري في الفلسفة .

كل ذلك ونحوه آراء خاطفة في النقد وتقدير الأدباء يطلقها القارئون أو السامعون . وقد نشأ النقد موجزاً مرتجلاً منذ الجاهلية وقد وجد الناقد الأول عقب الشاعر الأول ، ثم تواردت على هذا الفن — أو العلم — أطوار مثلها اللغويون ، والنحاة ، والمفكرون والأدباء<sup>(١)</sup> حتى انتهى إلى قوانين تقريبية تجدها في نقد الشعر ونقد النثر لقدامة ، والعمدة لابن رشيق ، والموازنة للآمدي والوساطة للجرجاني ، وتجدها متناثرة في نحو الأغاني وبنية الدهر وزهر الآداب وغيرها . والنقد ، كما يلي ، يقوم على الفهم ، والتقدير ، والموازنة ، ويعتمد على الذوق المذهب المصنف الذي هو مزاج من العقل والعاطفة والخيال ، وثمره لمواهب فنية ودراسات قوية . ويمكن الفرق بينه وبين الأدب ( بمعناه الخاص ) بأن الأدب سابق والنقد لاحق ، وأن الأدب يتصل بالطبيعة اتصالاً مباشراً والنقد يراها فيما يتناول من آثار الشعر والكتاب ، والأدب إيجابي ينتج ما نقرأ أو نسمع شعراً أو خطابة أو قصة ، والنقد في الأصل سلبي يحاسب الأديب ويقدر آثاره ، وقد يكون إيجابياً يهدي إلى السبيل القوية للإشياء . والأدب ذاتي يصور شخصية الأديب ومواهبه الخاصة ، ولكن النقد مزيج من الذاتية والموضوعية فهو مقيد بأصول علمية مقررة من جهة ومتأثر بذوق الناقد ووجهة نظره من جهة ثانية ، وهذا يدل على أن الأدب فن خالص والنقد فيه من الفن والعلم ، وأخيراً يكون الأدب إنشاء والنقد وصفاً في الاصطلاح الحديث .

(١) راجع تاريخ النقد الأدبي عند العرب لطلح إبراهيم .

هذا النقد الأدبي كان من العوامل التي أوجدت علما آخر هو البلاغة ، فإن ملاحظات النقاد وآراءهم استحالت فيما بعد إلى قوانين علمية ترشد الكتاب والشعراء إلى ما يجب اتباعه في التعبير عن العقل والشعور ، وهى قوانين البلاغة وأبواب المعانى والبيان والبديع فى علوم اللغة العربية . وقد عاش النقد والبلاغة مختلطتين من أقدم عصورهما فلم ينفصلا إلا بمشقة وفى نحو القرن الهجرى الخامس حين أقام الأستاذ عبد القاهر الجرجاني أسس البلاغة واضحة ، ثابتة الدعائم متميزة الصفات فى كتابيه الخطيرين : دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة . ولكنك تقرأ البيان والتبيين للجاحظ ، والصناعتين لأبى هلال العسكري ، ونقد الشعر والنثر لقدامة فتجد العلمين مختلطتين ولا سيما عند الجاحظ والعسكري فإن هذا الأخير يجعلهما شيئا واحداً إذ يقول فى مقدمة الصناعتين : « إن صاحب العربية إذا أخل بطلبه ، وفرط فى التماسه ، ففاته فضيلته ، وعلقت به رذيلة فوته ، عفى على جميع محاسنه ، وعمى عن سائر فضائله ، لأنه إذا لم يفرق بين كلام جيد وآخر ردىء ، ولفظ حسن وآخر قبيح ، وشعر نادر وآخر بارد ، بان جهله ، وظهر نقصه ، وهو أيضا إذا أراد أن يصنع قصيدة أو ينشئ رسالة وقد فاته هذا العلم مزج الصفو بالكدر وخلط الغرر بالعرر واستعمل الوحشى العكر فجعل نفسه مهزأة للجاهل وعبرة للعاقل » .<sup>(١)</sup> وليس هذا بالأمر الغريب بل هو طبيعى إذ كل من النقد والبلاغة يدور حول تحقيق الصدق والقوة والجمال فى الأداء والتعبير الأدبى ، فالبلاغة تأخذ بيد الأديب وتهديه إلى الصواب والنقد يقف على ما أصاب من حسن وما تورط فيه من قبيح فهما متحدان موضوعا وغاية وإن اختلفا من وجوه : —

( الأول ) أن البلاغة إيجابية سابقة فانها تضع للأديب القوانين التى تساعده على التعبير وتأليف الكلام الواضح الجميل ولكن النقد يفرض أن الكلام قد

تم انشاؤه ثم يتخذ من قوانينه مقاييس يقدر بها هذا الكلام لبيان ما فيه من محاسن أو مساوىء. ولذلك يأتى متأخر الوظيفة .

( الثانى ) أن البلاغة تعنى بالأسلوب أكثر ففترض أن الأديب عنده مادة يريد أداءها مهما تكن قيمتها ، ثم ترسم له طرق الأداء شعرا أو نثرا ، خطابة أو قصصا أو تقريرا أو تمثيلا . أما النقد فيعنى بالأسلوب والمادة جميعا ويتناولهما بالتقدير على حد سواء ، وإن كانت مقاييسه عامة قليلة .

( الثالث ) أن الاصل فى البلاغة أنها مرتبطة بالقراء والسمعين ، فالبلغ ملزم بملاحظة حاجتهم الثقافية ، ومستواهم فى الفهم ، وما يحيط بهم من مؤثرات ، ثم يؤلف كلامه مطابقا لهذه الاحوال <sup>(١)</sup> والاصل فى الادب الاتصال بالأديب نفسه وتصوير مواهبه وآرائه فى صدق ووضوح ، وعلى القراء أن يعدوا أنفسهم لدراسته وفهمه ، على أن النقد والبلاغة كثيرا ما يتلقيان اذا ما تقاربت حاجة الكاتب وقرائة ، وكان أديبا اجتماعيا يحسن الاتصال بعصره ومعاصريه .

وأما تاريخ الادب فيعد على حدائته من أهم وأسمى الابحاث الانسانية لانه تاريخها العميق الشامل وصحيفتها الصادقة الجميلة .

يرى مؤرخ الأدب أن نصوصه ثمرة طبيعية لشيئين : البيئة وشخصية الأديب فهو أمام ثلاثة أشياء . أدب له خواصة العقلية والوجدانية والخيالية والأسلوبية ، وبيئة في ظلها أنشئت النصوص وألفت الكتب . وأديب صدرت عنه هذه المنشآت على أنها أثر مباشر له وغير مباشر للزمان والمكان وما يلابسهما من عوامل ، فيتخذ النقد الادبى وسيلة لبيان خواص الأدب فى عصر من العصور ، ويوازن بين الأدب فى هذا العصر وبينه فى آخر ، ثم يعود باحثا وراء الاسباب التى طبعت الادب بهذه الطوابع فيقف وقفات طويلة عند البيئة بأوسع معانيها فيدرس المكان

(١) أحمد الشايب : الأسلوب ، ص ١٠ وما وليها ، طبعة ثانية

من حيث طبيعته ومناظره وأجواءه وحوادثه المطردة الطارئة ، ثم يدرس الجنس وخواصه الموروثة والطريفة ويحدد الفترة الزمانية وما تحقق فيها من مستوى عقلى واجتماعى وثقافى خاص ، ولا ينسى الدرجة الفنية ذات الاثر فى الاذواق والمواهب ، وهكذا يلم بجوانب الحياة وعناصرها فى مكان ما وفى عصر خاص فاذا انتهى من ذلك أو من هذه الأسباب العامة التى تتصل بالأدب فتؤثر فى موضوعه وعناصره عاد فوقف عند الشعراء والكتاب فدرس سيرهم وشخصياتهم محتالاً لذلك بعدة وسائل منها آثارهم الأدبية نفسها ، وبذلك يكون قد أحاط بكل ما يؤثر فى الأدب من عوامل سياسية واجتماعية ، ودينية ، وشخصية ، فيحصيها ويوازن بينها ويقيين ما يكون بينها من تشابه أو تطابق ثم ينسقها فى فصول علمية تكون هى الأسس الأولى لتاريخ الأدب .

ولكن هذا المؤرخ لا يمكن أن يمحو ذوقه وشخصيته وتقويمها ، وهو حين يدرس البيئة معرض لاختلاف الآراء فى مقدار صلتها بالأدب والأدباء . وأما دراسة الأشخاص فتتقه دائماً أمام أنواع من العبقرية والنبوغ يعجزه تفسيرها . لذلك كان تاريخ الآداب سائراً على قدمين من العلم والفن أو من الموضوعية والذاتية ، ولكنه كما رأيت عبارة عن تاريخ العقل والشعور أعنى تاريخ الإنسان باعتباره ثمرة الحياة وخير ما فيها جميعاً . ولكن انظر إلى هذه الأبحاث اللغوية والطبيعية والفلسفية والجغرافية والفنية والتاريخية والنفسية التى يجب أن يلم بها مؤرخ الآداب لأنها عوامل تؤثر فى الأدب وإليها ترد خواصه فى كل مكان وزمان أنظر إلى الأدب فى العصر الجاهلى وحده ، ولعله عصر السذاجة بالنسبة لما يليه ، تر أنك مضطر إلى الإحاطة الدقيقة بحياة بدوية جاهلة ذات درجة خاصة من الحضارة ، ومستوى محدود من التفكير ، ومتأثرة ببيئة طبيعية واجتماعية معينة ، ثم هذه الحياة الفردية للشعراء والخطباء ، وكلما كان تقدم الزمن فوصل إلى العصر

العباسى أو النهضة الحديثة زادت مسئولية المؤرخ والناقد لتعقد العوامل فى الأديب وتشابك ما يؤثر فيه من ثقافات متنوعة .

هذا جانب من الثقافة لابد منه للمؤرخ والناقد ، فإذا نظرت إلى الأديب المنشئ وجدت حاجته إلى الثقافة العريضة العميقة ماسة لاتقف عند حد وبخاصة فى عصرنا الحديث الذى كثرت فيه المعارف ، واتصلت الثقافات ، وألغيت المسافات الزمانية والمكانية بين الشرق والغرب ، فلا عذر لمن لايلم بأحدث الآراء والمذاهب فى العلوم والفنون والآداب ، ذلك لأن الأدب خلاصة مركزة جميلة لاجهود الثقافية والانفعالات الصادقة التى تسيطر على الأفراد والجماعات فى بيئة من البيئات ، والأديب الكامل زعيم لكل نهضة وسابق كل رائد ، نفسه أشبه بالبحيرة التى تستقر فيها مياه الراقد ، تنتهى إليه مواهب الجماعات فينهض بأعبائها ويصور آلامها وآمالها ويدعوها إلى الجهد سراعاً فتركض خلفه إلى الغايات .  
وأما ذلك الأدب اللفظى الذى يجنح إلى سرد المترادفات ، أو صنع الصور البديعة ، أو الكلمات الغريبة ، أو العاطفة المكذوبة ، فقد صار غثاً منبوزاً ، والعمد إليه جريئة أدبية لايسغنيها ذوق ولا يقرها عقل أى عقل .

وإذا رحنا نعد فضل الدراسات المختلفة على الأديب طال بنا المقام وحسبنا الإشارة الخاطفة إلى بعضها ، وعلى الأديب أن يشعر نفسه خطرها بالرجوع إلى مصادرها ليرى كيف تنسع آفاق فكرة وتصح آراؤه وتنضج مواهبه جميعاً .

فالتاريخ مادة خصبة للأديب تمدّه بالمعارف السالفة والتجارب المختلفة يتخذ منها موضوع قصصه وآيات استشاده ، ويفيد من نصوصه وأساليبه مادة صالحة للإنشاء ، على أن التاريخ نفسه صار يكتب بطرق قصصية تسهила لقراءته وتشويقاً إليه ، فهو الجانب الثقافى الأول . والجغرافيا قصة الطبيعة وباب أسرارها ، ومقد الصلة بينها وبين الإنسان . والفلسفة خلاصة الفكر الإنسانى وهدى التفكير

ووسيلة تنظيمه ليكون مطرداً منسقاً لا يقدم ولا يخصص ولا يعمم إلا حيث يجب ذلك . وعلم النفس صار الآن مصباحاً للخطيب والكاتب والشاعر ، ولعل خير نجاح يصيبه أديب ما كان على أساس الخبرة بطبائع النفوس ونزعاتها المتباينة . وخير الأدباء هم الذين ظفروا بثقافة واسعة كالجاحظ وأبى تمام والمتنبي والمعري ومثلهم المعاصرة لا تحتاج إلى تعداد . ولأمر ما جمعت هذه الدراسات كلها ودخلت كلية الآداب ؟ لا ، بل إن الدراسة الدينية والقانونية والاقتصادية والفنية كلها وغيرها عناصر هامة لكل أديب يفهم الواجب عليه فهماً صحيحاً ، ويستعد لأداء رسالته في نجاح وتوفيق .

وعلى الرغم من توزع الفنون الأدبية بين الكتاب والشعراء واختصاص كلِّ فن منها ؛ ما بين قاصّ ، وممثل ، وخطيب ، وصحفي ، مثلاً ، فلا غنى لأحدهم عن الإمام بسائر الفنون شأنه شأن الطبيب المختص بعلاج مرض بعينه لا يفتنيه ذلك عن الإمام بالصحة العامة ومقوماتها . . . وهكذا تتواصل الفنون الأدبية وتقتضي من الأديب إحاطة عريضة وثقافة عميقة .

---

# الفصل الخامس

## الأدب بين العلم والفن<sup>(١)</sup>

- ١ -

يجلس طالب الهندسة أمام أستاذه بالكلية يتلقى عنه وعن الكتب مسائل الهندسة ونظرياتها مؤيدة بالبراهين العقلية ، فيقال حينئذ إن هذا الطالب يدرس علم الهندسة ، ولكنه بعد هذا يغادر حجر الكلية وكتبها العلمية إلى الطرق والقناطر والمنازل والآلات الكهربائية والبخارية ليرسم ويبني ، ويدبر الآلات ، وينشئ المحدثات مستخدماً عدة وسائل يطبق بها هذه النظريات التي وعاهامن قبل ، فيقال هنا : إن الطالب يدرس فن الهندسة ، وهكذا تجد الهندسة علماً حين تدرس معارف نظرية ، وفناً إذا اتخذت شكلاً عملياً تطبيقياً تظهر آثاره في المواد الحسية أغلب الأحيان . وكذا الشأن في الطبيعة والكيمياء والزراعة ، هي علوم ندرسها في الكتب ونستمع إليها في المحاضرات ، وهي فنون نشهد آثارها ووسائلها العلمية في المصانع والمزارع والمصالح . والبلاغة والنحو من هذا الضرب أيضاً فهذه القواعد المقسمة أبواباً وفصولاً وكتباً هي الناحية العلمية فيهما ، وأما التراكيب الصحيحة في النحو والكلام المطابق لمقتضى الحال في البلاغة فهي الظاهرة في باب التعبير الذي يجمع بين الصحة والجمال جميعاً .

فالعلم — بناء على هذه الملاحظة السابقة — هو هذه المعارف الإنسانية في أسلوب

---

(١) هذا الموضوع نشر من قبل في صحيفة دار العلوم ، عدد ٢ سنة ٣ ، لإجابة عن الأسئلة ما العلم ؟ ما الفن ؟ ما الفرق بينهما ؟ ما أقسامهما ؟ ما صلة الأدب بكل منهما ؟ ثم عدل هنا بعض الشيء ليناسب سائر الفصول .



نظري منسق ، وأما الفن فهو هذه المعارف نفسها في شكل عملي تطبيقي . هذا هو الفارق العام بين العلم والفن ، وهو يشبه ما نعرفه في علم النفس من الفرق بين قوتي الإدراك Cognition والنزوع Conation ، من مظاهر الشعور النفساني . ولكن هذا الفرق الاجمالي بينهما لا يكفي لايضاح ما نحن بعرضه من وضع الأدب منهما موضعاً ثابتاً واضحاً يزيل هذا الابهام الذي سيطر منذ العصور القديمة على هذه المصطلحات المتصلة بالأدب وفنونه وعلومه ، فلنتقدم إلى الموضوع .

للعلماء كلام كثير في تقسيم العلوم إلى أقسام أو أنواع . وهذا الكلام يدور حول الأساس الذي يبنى عليه هذا التقسيم ؛ فمرة يقسمونها إلى علوم وصفية تقريرية تعنى بوصف الواقع وشرحه كالطبيعة والكيمياء والفلك ؛ وإلى علوم معيارية ، وظيفتها إيضاح المقاييس التي يجب أن تكون عليها الحياة الكاملة للأشياء ؛ فالمنطق يبحث في وسائل التفكير الصحيح ، والتناسق هو مقياس علم الجمال ، وغاية البلاغة بيان المثل الأعلى للتعبير المؤثر الجميل .

ومن العلماء من يترك ناحية الواقع والكمال السالفة ، ويقيم تقسيمه على أساس آخر هو مباحث العلوم ومقارنتها بالكائنات ، فعلوم شكلية Formal هي الرياضة والمنطق من كل ما يقوم على النظريات المجردة ، وعلوم طبيعية Natural تبحث في عناصر الطبيعة ومظاهر السكون تحليلاً وتركيباً كالطبيعة والكيمياء . أما العلوم الأدبية Moral فانها تتناول صلة الإنسان بالزمان والمكان ، وحياته الاجتماعية في البيئات المختلفة كالتاريخ والجغرافيا والأخلاق وهنا نضع العلوم الأدبية<sup>(١)</sup> .

كذلك ينقسم الفن قسمين : أولها الفن العملي أو النافع Useful art كالنجارة الساذجة والبناء والفلاحة ، وهو ما يكون عمل الجسم فيه أظهر من عمل النفس ،

(١) راجع أصول علم النفس لمرسى قنديل ، ج ١ ، ص ٣ .

وغاية هذا القسم الفائدة النفعية ، ولما كان وقفاً على هذه الناحية الحسنة للحياة سماه بعضهم الحرف والصناعات ، وإنما ذكرناه هنا إتماماً للتعريف بالفن أولاً ، ولنلفت النظر ثانياً إلى أن الأدب كثيراً ما ينخذ وسيلة لهذه الغاية النفعية وكسب المال فينقله ذلك من دوائره الأصلية إلى دائرة الصناعات ويفقد لهذا مكانته السامية وجماله الرائع ، وثانيتها الفن الجميل Fine art . وعمل النفس فيه أوضح من عمل الجسم كالموسيقى والرسم والأدب ، وإذا كان لابد من الإشارة إلى غاية هذا القسم ، فهي التعبير الجميل الصادق الذي يبعث في النفوس اللذة والسرور ويظهر الناس على أسرار الحياة وروحها العميقة ، وهذا كلام يعوزه الايضاح وضرب الأمثال ، وسترى في هذا الفصل شيئاً منه بقدر ما يسمح المقام .

والفن الجميل منه السمعى كالموسيقى والأدب ، ومنه البصرى البارز كالنقش والتصوير ، والبصرى السطحي كالرسم الذي يعبر عن الجمال بالخطوط والألوان ، ونود هنا بإيجاز شديد رأياً لفيلسوف الهند وشاعرها — تاجور — في نشأة الفن وغايته ، وهو رأى ينفعنا هنا في بيان ما يصل الأدب بسائر الفنون . وهو مقتبس من محاضرة ألقاها في أمريكا تحت عنوان : ما الفن ؟ <sup>(١)</sup>

يرى تاجور أن أهم فارق بين الإنسان والحيوان أن الثاني يرتبط بالحياة ارتباطاً يقف عند حدود الضرورة فلا يتعداها إلى الكليات الفائضة التي تعد من أقوى مظاهر الحرية الإنسانية ، فالحيوان يقنع بما يسد كفايته من الطعام والشراب في حين أن الإنسان يطعم دائماً أن يتجاوز هذه الحدود فيضاغف أرباحه ويكدم ذخائره ويلتمس الأسباب لأنواع الرفاهية والنعيم ، ويتحرر حينئذ من كل ضروره ملحة ، ويصبح سعيه في سبيل المال غاية مقصودة لذاتها دون أن تدفعه إليها ضرورة ملحة ؛ فالمال للمال كما الفن للفن :

(١) السياسة الأسبوعية عدد ٢١١ و ٢١٢ : ترجمة الأستاذ يوسف حنا .

كذلك نجد معارف الحيوان تنتهى عند حاجته إلى المسكن والغذاء ،  
وتكيف نفسه طبقاً للجو المحيط به ، ولكن الانسان يعرف أكثر مما تتطلبه  
ضرورات العيش ، وهذه الزيادة فى المعرفة هى التى تدفع الانسان إلى الفخر بأنها  
العلم للعلم ، وهى التى تشعره بلذة الحرية وتسمح له أن يقيم عليها علومه وفلسفاته .  
فاذا تركنا هاتين الناحيتين الحسية والعقلية إلى ناحية الوجدان رأينا أن  
الانسان يشترك مع الحيوان فى ضرورة التعبير عن عواطف الفرح والألم والخوف  
والغضب والحب . وهذا التعبير الوجدانى عند الحيوان لا يتعدى حدود المنفعة ،  
ولسكنه عند الانسان يتصل بسبب قوى إلى نفس الحدود النفعية ثم يتجاوزها إلى  
آفاق أخرى يكون التعبير فيها عن الوجدان غير مقصود به حفظ الحياة ، وإنما  
هو التعبير للتعبير ، أو يكون الفن للفن Art for Arts' sake ، فالانسان له فيض  
من نشاط العاطفة يزيد كثيراً على ما تتطلبه حاجته إلى المنفعة وحفظ نفسه ، وهذا  
الفيض العاطفى يصعب على النفوس كبته ، فهو كالبخار ، يحاول دائماً الخروج  
إلى السكون فى شكل ما ، وهذه الأشكال هى نتاج الفنون .

- ٢ -

وإيضاحاً لهذه النظرية التى عرض لها تاجور ، نقول : إن هذا الفيض الوجدانى  
طبعى فى الإنسان ، بكر فى الظهور ، وبدت مظاهره من أقدم العصور ، ولا تزال  
تزداد وتنوع حتى الآن ، وستبقى متجددة مادامت الحياة ؛ ففى فجر التاريخ  
ارتاع الانسان بمظاهر الكون ، وأدهشته الكواكب السائرة ، والطبيعة الجميلة ،  
فانتفع بها أولاً ، ثم اشتد وجده بها فعبدها ثانية . وما كانت هذه العبادة إلا لغة  
فنية عبر بها الإنسان الأول عن عواطف الاعجاب والشكران ، ثم انتصر المحارب  
على قرنه وأخذ يفتجج بهذا الفوز مغنياً راقصاً أو معبراً عن عواطف الفرح والשמاعة

وكان غناؤه أول الأمر أصواتاً مبهمه وأنغاماً لا تدل على أفكار أو معان صريحة محدودة ، فقد كان أشبه شئ بما يتصايح به العمال حين ينقلون حملاً ثقيلاً أو يجرون مركباً في البر والبحر ، فنسمع منهم « هيل هيل ، هيل هيل هيل » . . . لغة تصور عاطفة ما دون إفصاح عن المعاني والأفكار . وتلا ذلك دور آخر حلت فيه الكلمات ذوات المعاني محل هذه الكلمات المبهمه ، وعن ذلك نشأت الأناشيد أو قل نشأ الشعر أحد هذه الفنون الجميلة ومن أسبقها إلى الوجود .

ولما حاول الانسان تسجيل ما في نفسه بالكتابة عاش مدة وهو قانع بسذاجتها ولكنه أخذ يحملها ويعقب عليها بألوان من الزخارف والتهاويل حتى نشأت فنون الرسم والنقش والتصوير — أى عمل الصور وهى التماثيل — وغيرها . ومعنى هذا كله أن هناك عواطف قوية صادقة تسيطر على نفس الانسان وتلح عليها لعلها تخرج إلى الحياة كما يتنفس الأنا . عن بخار الماء المغلى ، فإذا بنا نرى هذه العواطف الفائضة فى شكل الرقص أو الغناء أو الرسم أو التصوير أو الكلام ، نسمعها ألحاناً موسيقية ، ونصوصاً أدبية ، ونشدها حركات توقيعية ، وألواناً متناسقة ، وأجساماً مصقولة مهذبة ، وهذه هى الفنون الجميلة التى أشرنا إليها من قبل . وقد رأيت أن الأدب أحدها ، وسترى فيما يلى أنه يجمع فى تعبيره بين فئة منها ثم يمتاز عنها جميعاً بالبيان والافصاح .

ونعود إلى العلم والفن وما قد يكون بينهما من فروق تتصل بتاريخهما وصلتهما بالحياة بعد ما عرفنا أن العلم يتناول ناحيتها التطبيقية العملية .

( ١ ) من هذه الفروق ما يلاحظ من أن الفن أسبق إلى الوجود من العلم ؛ فالشعر — وهو فن — جاء سابقاً علم العروض والقافية ، والتعبير الصحيح كان قبل النحو وقواعده . وما لاشك فيه أن أصول العروض وقواعد النحو مستنبطة من النصوص الأدبية الأولى لا العكس .

وهذا معناه أن فن الأدب بكر إلى الحياة قبل علم الأدب ، كذلك تغنى الناس ونفخوا في أعواد القصب والمعادن قبل أن يعرفوا أصول الغناء ورموز الموسيقى ، وقد خلق الإنسان قبل أن يعرف عن نفسه شيئاً ، وازدانت الطبيعة بالأزهار والثوج ، وغردت البسابل على الأيك ، ولمعت السحب بالبروق وخفقت جوانحها بالعود قبل أن يتجرى الإنسان حقائقها ، ويحاول تقليدها أو يضع لها هذه القوانين الصارمة التى هتكت أسرارها وإن لم تقدر على محوها أو القيام بوظيفتها السامية البديعة ، أو الحد من روعتها الخالدة وما كان لفلسفة أرسطو على خطرها ، أن تنسخ فن هومير .

( ٢ ) كذلك يختلفان من حيث صلتها بالحياة ، فالعلم يتناول الحياة كما هى فى الواقع دون أن يؤثر فى حقائقها شيئاً ، ولكن الفن يتناولها كما يريد الفنى نفسه ، فلا يكتفى بعرضها كما هى خالصة وإنما يمزج بها عاطفة الفنى وخياله فتبدو الحقيقة كما تصورهما وخالها ؛ فالعلم يقف من قوس الغمام والأزهار والسحب السارية والطلعة البهية فاحصاً محللاً ، يعنى بتعليل الألوان والأجزاء كيف تتألف وتناسب ، وكيف تنمو وتذبل ، ثم يتلقى عنها ما تمليه عليه وسائله العلمية ويدونها نتائج وقوانين يخضع لها فى دراسته ، وفى مقدار استغلاله لـ لاكون ، فإذا ما عرض الفن — لا يمكن الرسم مثلاً — لشيء من ذلك لا يقفى فى هذا التدقيق والتحليل الحسى الجاف ، وإنما يعنى بأمرين آخرين : أولهما ما يفهمه الرسام من الزهرة أو المنظر من معنى الودعة أو التألف أو الجلال ، وثانيهما ما يرى أنه يمثل هذه المعانى تمثيلاً جميلاً قوياً ، فيختاره ويؤثر على ماسواه من مادة ما يرى ؛ فالوردة فى ألوانها ووضعها ، ولا يبالى فى الشجرة عدد أوراقها أو أفنانها بقدر ما يبالى شكلها ولونها ونماها وظلالها وما قد يأوى إليها من الطيور ويريف ظلها من الخلائق . فإذا فهم ما يراه هو ملائماً لذوقه الفنى عمد إلى الرسم فأبرزه لنا صورة منتقاة العناصر دالة

على معان شائقة هي روح الطبيعة وسرها الرائع . وقد يزيد على هذين أشياء يكمل بها نقصاً شهده في الطبيعة نفسها . ألست ترى أن طاقة الورد المرسومة قد تكون أجمل تزييناً وأدل على البراعة من هذه الأزهار المتناثرة في البستان والتي لا يجمعها نظام ، ولا ينظمها ذوق مستقيم ؟ ألست تجد في وصف الطبيعة من السحر والفننة ما لا تنظر به في الطبيعة ذاتها ؟ بلى ، وذلك لأن الرسام أو الشاعر قد عرض عليك الطبيعة حية فيها نفسه وتفسيره لها وما استخرج من أسباب جمالها أو عرض عليك الحياة من خلال نفسه وكما رآها فجمع بين شيئين الطبيعة مضافاً إليها نفسه : عواطفه وخياله . مرت سيّدة أمام رسام فراعته لوحة عليها منظر طبيعي بديع ، فقالت له : ولكن الطبيعة ليست كذلك ! فأجابها من فوره : ولكن أما كنتِ تودين أن تكون الطبيعة كذلك ؟ !

وهذه القصة تشير إلى أن الفن كثيراً ما يرسم المثل العليا للحياة لأنه يتجاوز الواقع إلى بيان ما يجب أن يكون حسب رأى الفنى وسمو خياله وصدق شعوره .

فاذا كان الفن تصويراً شاهدت التمثال ذا خواص بارزة تصور لك نواحي الجمال أو العظمة لصاحبه . ولعل الموسيقى من أشد الفنون رمزاً وأقواها اتصالاً بالعاطفة الروحية دون عنابة بالحسيات ، وهذا هو الأدب ، يسلك هذا المسلك نفسه ؛ فالربيع في رأى العلم أحد فصول السنة ؛ يحل لأسباب طبيعية خاصة ، وفي شهور معينة ، تصحبه مظاهر جميلة من زهر نضر ، ونسيم معتدل وأريج إلى غير ذلك من الحقائق المقررة التي لا يختلف الناس فيها مهما تختلف بهم البيئات ، ولكن الربيع في رأى الأدب هو ما يعرضه الباحث حيث يقول :

أذاك الربيعُ الطلقُ يختال ضاحكاً      من الحسنِ حتى كاد أن يتكلّما  
وقد نبّه النّيروز في غسق الدّجى      أوائلَ وردٍ كنّ بالأمسِ نوّما

يُفْتَحَا بَرْدُ النَّدَى فَكَأَنَّهُ    يَبُثُّ حَدِيثُ كَنْ قَبْرِ مَكْتُمَا  
وَمِنْ شَجَرِ رَدِّ الرَّبِيعِ لِبَاسَهُ    عَلَيْهِ كَمَا نَشَرْتَ شَيْئاً مُنْعَمَا  
وَرَقُّ نَسِيمِ الرِّيحِ حَتَّى حَسْبَتُهُ    يَجِيءُ بِأَنْفَاسِ الْأَحْيَةِ نَعَمَا

زائر باش ، مزهو بحمالة يكاد يحدثك عن نفسه وجماله ، طاف على الورود في ظلمات الليل فأيقظها من سباتها ، وكشف بنداه عن تيجانها حتى نشرت شذاها العبقري وكان سرّاً مكتوماً أفشاه الندى ، وهذه الأشجار قد ازينت بما خلع عليها الربيع من حلال تشبه الوشي زر كشته يد صناع ، وأما النسيم فما أشبهه بأنفاس الأحياء الناعمة في رفته وشذاه . فهذه الصور الفاتنة للربيع تتجاف كثيراً عن التحليل العلمي ودقته الجادة ، وإن تعمقت إلى أسباب جماله وأبعد أسرارها ، فعرضته علينا كائناتاً حياً ذا إرادة قادرة على الإبداع والزخرف ، وهي صورة من نفس الفن خلعها على الربيع ، وأخضعه بذلك لسلطان نفسه ، ورسمه كما شاء — العلم يخضع للحياة فيستميلها ويكتب ، والفن تخضع له الحياة فيتصورها ويرسم .

(٣) ويتصل بذلك فرق آخر بين العالم والأديب ، فلو أنك أوقفت رجلين : عالماً وأديباً أمام الأهرام لرأيت عجباً في اختلاف نظرهما إلى هذه الآثار الخالدة فهم العالم مقاييسها ، وطرق إقامتها ، وأساس أوضاعها ، والغرض منها ، وصلتها بالعقيدة الدينية لقدماء المصريين . ولكن الأديب يراها جملة لا تفصيلاً ، فإن كان عنها راضياً كانت سجل المجد ، وصحيفة الخلد ، وآية المفاخر ومعجزة الدنيا . وإن كان ساخطاً بدت له رمز الظلم والجبروت ، وشاهد الذلة والعبودية ولسان السخط ، يذبح عن الفراعنة عنناً واستبداداً في الدنيا إلى آخر الدهر . وإن كان حكماً رآها سمة الجلال والوقار ، قامت تسجل على الناس ما قدموا من

الخبرات والسيئات ، تتلوا عليهم عبر الحوادث وتقص عليهم العظات ، ففي ثناياها تاريخ الدنيا وتجارب الأمم .

والسرفى ذلك أن العالم يتلقى الحياة بعقله ويحاول دائماً أن يخضعها لقوانين عقلية وتجريبية ، يشترك مع سواء فى إدراكها إذا كانت هذه الحقائق العلمية لا تدل على الشخصية كما تدل عليها العاطفة ، ولكن الأديب يتلقى الحياة بمزاجه ووجدانه الخاص ، ويفسرها متأثراً بشخصيته هذه ؛ تدخل مشاهد الدنيا إلى نفسه البهجة الطروب ، فتصور تصويراً جميلاً وتخرج أدباً فرحاً طروباً . فإذا كانت نفسه حزينة متشائمة فسرت المشاهد بؤساً وأسفاً ، وكان الأدب حزيناً متشامماً . وكذلك نجد نفس الأديب أشبه بأنايب فيها صبغة ذات لون خاص تنغمس فيه الأشياء فتخرج مصبوغة بما فيه ، وهنا نذكر ما قلناه قبلاً من قول الأستاذ ماثيو أرنولد Matthew Arnold عن الشعر بأنه « نقد الحياة » أى تفسيرها على هذا النحو المذكور ، فأطلقه النقاد على الأدب جميعه شعراً ونثراً .

ولما كانت الشخصيات الفنية مختلفة باختلاف الفنيين رأيت لكل منهم نظره الخاصة إلى الاشياء ، وأسلوبه الممتاز فى التعبير عنها . فقدت وجدت سابقاً أن الفنون اختلفت فى وسائل التعبير بين ألوان ، وألحان ، وعبارات ، وأحجار ، ونقوش ، ونجد هنا أن الرسامين يختلفون فى رسم الشيء الواحد ، والمصورين فى نحت التماثيل ، والموسقيين فى تلحين الدور عينه ، والشعراء فى تخييل ما يشهدون كما رأيت — فى الفصل الأول — من خلاف بين المعرى والشريف الرضى فى تخييل المشيب . على أنك تجد الشاعر بن ينفقان على حسن الشيء ، ولكنهما يختلفان فى صورة الحسن ، كيف تؤلف ، فالشيب عند أبى العلاء نتيجة طبيعية للحياه لا يلبق إخفاؤه بالادهان والاصباغ ، وهو عند الشريف



سيف مصلت على الرؤوس لاقوة ماضية في يد الناس كما يقول المغالطون ، ولكنه عند الفرزدق نجوم تزين صفحة الظلماء :

تفريقُ شيبٍ في الشبابِ لوامعٍ وما حسنُ ليلٍ ليسَ فيه نجومٌ  
وهو عند البحترى بروق السحاب الندى وزينة الليل البهيم : —

أيُّ ليلٍ يُزهِى بغير نجومٍ أو سحابٍ يندى بغير بروقٍ  
أنظر حكمة الله في هذا الكون ، جعل الناس متفقيين في الأمور العقلية التي تقوم عليها نظم الحياة وعمرانها فالكل متفق على أن خمسة زائداً عليها خمسة تساوى عشرة ، وجعلهم مختلفين في هذه الوسائل الفنية لما في ذلك من المتعة والبهجة والنعيم بالحريّة إلى أبعد آفاقها ، فكُم ترى رسوماً وتماثيل وألحاناً وأخيلة لشيء واحد تواردت عليه عبقریات الفنين ، فمرضته عليك صفحات فيها كل سحر مبين . كيف تكون الحال لو عكست الآية ؟ ألا يصيب الحياة جمود وملال ، ثم فساد واضطراب خطير ؟ !

( ٤ ) كذلك يختلف العلم والفن من حيث الغاية ، فالعلم يغذى الفكر الإنساني ويعبر عن وخليفة الإنسان باعتباره حيواناً ناطقاً مفكراً ، والفن يغذى الوجدان ويعبر عن شخصية الإنسان باعتباره حيواناً شاعراً له فيض من وجدانه وضميره ، ولنوضح ذلك بشيء من التفصيل : هذه الحقائق العلمية يحصلها الإنسان بالنظر والتجريب ، ويكون بها عقله السكبي وتصبح بعد حين حقاً مشتركاً بين الأفراد لا يكادون يختلفون في تعرفها ، فكما أنها تصدر عن الفكر ، تنبجه كذلك إليه تزيده نوراً وعرفاناً وتزوده بالثقافة وتعينه على الانتفاع بعناصر الطبيعة وكل ما في الكون من خيرات ومعنى ذلك أن غاية العلم تقع في ناحية النفعية وعندها تنتهى ، والفن : ما غايته ؟ رأينا أن ( تاجور ) يميل إلى أنها التعبير عن شخصية الفني ، وتمثل الشخصية في فيض الشعور والعواطف القوية الصادقة التي تتخذ

من الألوان والألحان والعبارات الجميلة وسيلة ولغة لهذا التعبير المراد ، وهناك من يرى أن غاية الفن هي الجمال الذي يعرضه الفن ألواناً وألحاناً وأعاريض ليسرنا ويمتعنا وعند هؤلاء يكون الجمال غاية لا وسيلة بخلاف ما يرى الفيلسوف الهندي الشاعر . وإذا عرفنا أن الجمال معناه الصدق في الأداء شعرنا بالتقاء الرأيين وعدم التنافر بينهما . وعلى أيهما سرنا فليس من ينكر على الفن ما فيه من جمال للبصر ومتعة للنفس ، وراحة للإنسان وأنه دارة ( واحة ) في صحراء الحياة يأوي إليها السفر مجودين فيطمئنون منها إلى ظل ظليل ، وماء سلسبيل واستجمام للعافية ، يعدونها لسرى الليالي وتأويب الأيام . وكلا المذهبين لا يريد أن يعنت الفن ويحمله ما لا يطيق ولا مالمس من طبعه ، فحسبه مسرة النفوس ولذتها لا يعتيه أن يكون نفعياً يحمل مادة الثقافة والتهديب ، هو الفن الذي يعبر ليس غير أو هو الفن للفن كما قيل من قبل .

ولكن هذا العصر الحديث أصيب بهذه التلخمة للمادية والنفعية الحسية ، وصار الناس لا يؤمنون بشيء إلا إذا حمل لهم في طياته نفعاً محسناً ، هو المال أو ما هو بسبيله مما يفيد ، وإذا بهذه الروح تجور على الفن ، وتطلب منه أن يكون نافعاً أيضاً وإلا كان مطروحاً منبوذاً ، فالفن الذي كان يقصد من فنه إلى إبراز شخصيته وإشاعة الطرب في الحياة ، أصبح أمام هذه النزعة الحديثة مضطراً أن يبت خلال تعابيره رسالة تهذيبية أو إصلاحية لتأييد مذهب سياسي أو اجتماعي أو خلقي أو يعتمد إلى شرح مسألة فلسفية وعرض فترة تاريخية ، وغير ذلك مما صرنا نسمعه الآن في نقد الرسامين والمصورين والشعراء والقصاص : ماذا يقصدون بهذا ؟ ما رسالتهم الفنية ؟ هل أحسنوا التفكير والتصوير والتعبير ؟ ! وعندى أنه لا بأس بأن يحمل الفن في طياته أسباب الإصلاح فيجمع بذلك بين النفع والتأثير ، ولكن الخطر الخطير أن تحمل النفعية سيداً عظيماً لاضيفاً كريماً . نعم نخشى

سلطان النفعية التي تنقل الفن من جماله الوجداني الجميل إلى دائرة الحرف والصناعات ، فيصير الشعر نظماً والرسم مصورات تعليمية وتذهب بذلك روعة الحياة.

والآن فالى أى الناحيتين يميل الأدب ؟ وما عسى أن يصله بكل من العلوم والفنون ؟

الأصل فى الأدب أنه فن جميل يعبر عن شخصية الأديب ، ويصور عواطفه متوسلاً إلى ذلك بهذه اللغة الكلامية التي تجمع بين الجمال والافصاح ، ويتراءى ذلك فى الشعر والنثر الأدبي والخطابة والقصة والوصف ونحوها من كل ما هو معرض للانفعالات النفسية . ومع ذلك فلا بد من الإشارة هنا إلى بعض المسائل التي تصل بين الأدب والعلم كما نقف فيما بعد عند مسائل أخرى تدخله دائرة الفنون .

( ١ ) الأولى أن الأدب بمعناه الخاص — وهو الشعر والنثر الجميل الذى يقصد إلى تصوير العاطفة — لا يمكن أن يستغنى مطلقاً عن الحقائق العقلية ، والمسائل العلمية التي تعصمه من الخطأ فى التفكير والتصوير ، ثم تسند العاطفة وتضمن لها القوة والخلود كما ظهر ذلك فى الفصل الأول والثانى . غاية ما يقال أن النقد الأدبي لا يحتم فى هذا الضرب من الأدب أن يكون عنصره العقلي حقائق مبتكرة وآراء جديدة ، فقد يكتفى بالمعارف العادية ولكنه يحرص على الجودة فى التصوير والتمثيل كما ترى فى ذلك فى الكلام على المقاييس النقدية . أما إهمال هذا العنصر العقلي فانه يعرض الكتاب والشعراء للتورط فى أخطاء شنيعة . ويجعل الأدب فارغاً سخيفاً هين القيمة سطحى العاطفة ، ولما قال أبو تمام :

الذُّ من الماء الزلال على الظما وأطرفُ من مرَّ الشمال ببغداد  
لحظ الجرجاني<sup>(١)</sup> فساد الفكرة هنا وأخذ على الشاعر جعله الشمال طرفه ببغداد وهي

(١) الوساطة ، ص ٧٢ ط صبيح .

أكثر الرياح بها هبوباً . وقد صار من المقرر أن الأدباء لا يستغنون عن ثقافة فلسفية تاريخية جغرافية فنية علمية ، لتكون آثارهم صحيحة قيمة خليقة بالبقاء<sup>(١)</sup> .

( ٢ ) الثانية أن الأديب بمعناه العام يتناول جميع الآثار التي تتركها أقلام الكتابين في أى باب ، فمنه العلوم ، والفلسفات ، والفنون ، والآداب . ويدخل فيه التاريخ والنقد ، والسياسة ، والاجتماع ، والقانون ، والاقتصاد ، من كل ما يؤدى حاجة النفس الثقافية . وهذا النوع تغلب فيه الناحية العلمية ، فهو علم في أسلوب أدبي ، وكثير من فروعها يجمع بين العنصرين العقلي والعاطفي بدرجة متقاربة . فالنقد مزيج من العلم والفن ، والتاريخ لا ينسى الخيال والشعور ، وكثير من الفلاسفة كانوا أدباء ، وبعض الكتب العلمية الخالصة صارت تكتب بأسلوب أدبي جميل كما في « قصة الميكروب » للدكتور بول دي كروف التي ترجمها الأستاذ أحمد زكي حديثاً .

( ٣ ) الثالثة هذه العلوم الأدبية ، فاللغة والنحو والصرف والبلاغة والعروض علوم في تاحتيتها النظرية ، ولا يستغنى عنها الأديب . فاللغة مادة الأسلوب ورموز المعاني ، والصرف مقياس الكلمات وتصريفها ، والنحو يصلح التراكيب ويضبطها ، والعروض مقياس الشعر وضابط الخانة وموسيقاه ، والبلاغة هي قانون الصلة بين الكاتب والقارىء . هذه العلوم ليست أدباً وإن كانت لازمة للأدب من حيث إنشاؤه وفهمه ونقده وتذوقه لا يستطيع مشتغل بالأدب مجد أن يباشر مهمته قبل أن يتقن هذه العلوم وبأخذ منها بالنصيب الوافي . وهذه مسألة مقررة لا تحتمل الاطالة .

فلنترك هذه الوجه من الموضوع ؛ ولنبحث فيما يصل الأدب بالفنون الجميلة :

(١) راجع الفصل الرابع من هذا الكتاب .

( ١ ) أول ما يلقانا من هذه الصلة ما شرحناه في تعريف الأدب من أنه  
يصور انفعال الأديب وخواصه النفسية ، وهذا هو عمل الفن الجميل ؛ فالموسيقا  
مثلاً تلجأ إلى الألحان تؤلف بينها لتمثل البلايل الغريذة ، أو العاصفة الهوجاء ،  
أو الأمل الوثاب ، أو اليأس القاتل ، كل ذلك في بهجة الفرح الطروب أو ثورة  
المتبرم العنيد ، وكذلك الأدب تسمع في عباراته أنه المحزون آده الهم وأضناه ،  
وصيحة السجين النائر قيدته السكبول والأغلال ، ثم نجوى الغرام ملكت فؤاد  
العاشق الوهان : —

إن الذين غدوا بليلك غادروا وشلا بعينك لا يزال مَعِينَا  
غَيْضُنَ من عَبْرَاتِهِنَّ وقلن لي : ماذا لقيتَ من الهوى ولقينا  
وكثيراً ما ترى الرماح المشتجرة ؛ والأرحام المعرقة تسيل بينها دماء عزيزة ،  
وتفيض لمرآها دموع غزيرة حسرة وندماً : —

شواجرُ أرحام تقطعُ بينها شواجرُ أرحام ملومٍ قَطوعُهَا  
إذا احتربت يوماً ففاضت دماؤها تذكرت القربى ففاضت دموعُهَا  
هذا الفن الأدبي الجميل يسمعك خطرات النفس ، ولكن في إفصاح لانتقاءه  
في فن آخر .

( ٢ ) يلتقي الأدب مع الفنون الأخرى من ناحية العناصر التي تتألف منها  
جميعاً ، وهذه المسألة تحتاج إلى شيء من الإيضاح ، فالموسيقا فن صوتي يتجه  
إلى العواطف مباشرة يثير منها حزناً أو سروراً ، والأدب كذلك فن صوتي فيه  
أوزانه النظامية التي تتخذ في مقاييسها الأولى مع المقاييس الموسيقية ثم يتجه  
أيضاً إلى العواطف يصورها ويهيجها كما رأيت ذلك منذ حين . وإذا تركنا  
الموسيقا إلى الرسم والتصوير ، رأينا فنيين يعبران عن عاطفة وفكرة هما إكبار  
العظمة الحربية أو السياسية أو الأدبية أو اللسانية . ووسيلة التعبير عناصر

حسيه من الأصباغ والأحجار تأتلف أو تصقل لترمز إلى رحمة واسعة أو عبقرية نادرة أو فتنة ساحرة أو طبيعية جلييلة . وفن الأدب كما رأيت يشارك هذين في الافصاح عن الفكرة والتعبير عن العاطفة ، وفيه عنصر الخيال الذي يقابل هذه الأصباغ والأحجار فيهما . فاذا قرأت لشوقي قوله يصف إحدى خاتل الجزيرة :

وخيلة فوق الجزيرة مسها ذهبُ الأصيل حواشيا ومُتونا  
كالتبرِ أفقاً ، والزبرجدِ ربوةً والمسكِ ثُرباً ، والأحجارِ معينا  
وقفَ الحيا من دونها مستأذناً ومشى النسيمُ بظللها مأذونا  
وجرى عليها النيلُ يقذفُ فضةً ثراً ، ويكسرُ مرمرأ مسنونا

فهل تجد الأدب يقصر على مدى الرسم والتصوير في اتخاذ هذه العناصر الحسية من الألوان والأجسام لعرضها علينا مهذبة مصقولة بخياله الرائع وأسلوبه الواضح الجميل ؟ وأي فرق بين لوحة رُسمت عليها الخيلة وقت الأصيل وبين هذه الأبيات التي بعثت فيها الجمال حياً ، وعرضتها تخطر أمامك في حرم الشعر وهما مزهوة ذات دل وإعجاب ؟ أجل ، إن كان هناك فرق ، فانه يجعل هذين الفنين — الشعر والرسم — متشابهين لا يبعد أحدهما عن الآخر ، فاللوحة المرسومة تعرض عليك المنظر دفعة واحدة بحيث تتعاون جميع عناصره على التأثير في نفسك في لحظة واحدة ، والشعر يعرض عليك هذه العناصر متوالية متتابعة ، في كل يدت جزء ، حتى إذا انتهيت من القراءة انتهى المنظر عرضاً وبياناً . فاذا امتاز الرسم بذلك — ومثله التصوير — وجدنا الأدب عمتازاً بالافصاح الواضح دون الاكتفاء بالإشارة الرمزية التي قد تخفى على كثير من الناظرين . وإذا كان فن الوصف الأدبي يقابل فن الرسم فان القصة تقابل الخيالة ( السينما ) . وخلاصة هذه النقطة أن فن الأدب تتوافر فيه هذه العناصر المسيطرة على الفنون الأخرى ، ولكنه يمتاز بالتعبير الصريح ففيه العاطفة والفكرة والعبارة وفيه هذا الخيال الذي يستمد

عناصره من الطبيعة ، ويكونها في صور من التشبيه والاستعارة والمجاز وحسن التعليل .

( ٣ ) وغاية الأدب كفاية الفنون الجميلة الأخرى . وهب أن هناك خلافاً في تعيين هذه الغاية كما سبق ، فهل يُغير ذلك من حقيقة الواقع ، وهو ما لهذه الفنون من آثار تهذيبية ، وثقافية ، ولذيذة ، تتعاون بها على ترقية الحياة وإزالة جفوتها ، وتهوين مشاقها ، والكشف عن أسرار جمالها ، وتفسير مسائلها تفسيراً فكها حلواً ، ولكنه مع ذلك فلسفتها العميقة ، وحقيقتها السامية ؟ تقف أمام تمثال فيروعك منه صقل واملأس ، وأجزاء بارزة تنطق بمواهب خاصة واتساق ينم عن روح ممتازة حتى إذا انتظمت بصيرتك هذه المشاهد كلها أدركت من ورائها تاريخاً حافلاً بالآثر الحميدة ، ومعاني تلتقي عند جزء من الإنسانية وهو خلاصتها ودعوة حارة خالدة إلى دين مجيد هو جهاد الحياة وسعادة الممات ، واقرأ هذين البيتين للمتنبي :

ومُرَادُ النفوسِ أصغرُ من أنْ      تتعَادى فيه وأنْ تتفانى  
غيرَ أنْ الفتى يُلاقى المنايا      كالحاتٍ ولا يُلاقى الهوانا  
تجده يشير في نفسك عاطفة التشبث بالكرامة والعزة ، ولكنه يأخذ بتفكيرك إلى مجال فلسفي عميق ، فيقرر معك أن مطالب النفوس من الطعام والشراب واللباس لا تستدعى هذا التطاحن العنيف ، والتعاضد الحاد ، وإذا فلم كل هذا الصدام والتناحر ؟ إنها لغاية أخرى هي الحرية والكرامة التي هي غذاء النفوس الكريمة وحياتها الصادقة ، وأما ما سواها فهو موت الحياة . وهنا نشير إلى أن الفنون كثيراً ما ترسم أسمى المثل الحيوية ، أنظر إليها حين تجمع على المسرح التمثيلي ترى عالم تغمرك به من جمال ذى فنون ، وجلال مهيب تنسى معها دنياك الواقعة ، لأنك سموت إلى دنياك السكالية . وكَم من خطبة

غبرت مجرى الحياة ، وقصيدة رفعت خاملاً ، وأخملت ربيعاً ، ولا تزال الأناشيد القومية سجل الماضي وآمال المستقبل والفن أولاً وأخيراً هو بلسم الحياة إذا فقدته آلتها التهمها الحريق .

( ٤ ) وهناك صلة أخرى بين الأدب وسائر الفنون الجميلة تقوم على تردها جميعاً بين الطبيعة الموهوبة للفنى وبين الخضوع للقوانين التعليمية ؛ فالى أى حد يتمتع الفنى بحريته معتمداً فى إنتاجه على مواهبه الطبيعية وشخصيته المبتكرة وإلى أى مدى يتقيّد فى إنتاجه بهذه القوانين المقررة فى أصول الرسم والموسيقا والتصوير والبلاغة والنقد الأدبى ؟ كثير من طائفة الفنانين والأدباء يفرون من قوانين الفن ويحاولون الاعتماد على طبائهم فى الانتاج الفنى مدفوعين بدعوى التجديد والابتكار أو الغلو فى فهم ما يراد بالحرية الفنية أو بنوازع الغرور الكاذب ، وكثيراً ما يهجم بهم ذلك على الزلل والأخطاء فيهمزمون . وقد نرى بين الآثار الأدبية المعاصرة مظاهر شتى لنحو هذه العقيدة ولكنها مظاهر رعناء لم يكتب لها البقاء . كذلك نجد جماعة من المخرجين الذين يجمدون عند مارسم القدماء لا يتزحزحون عنه ناسين أن الفن كالحياة ، كلاهما فى نمو دائم وتغير دائم ، فقاموا يزودوننا بمقاييس محدودة حاسمة لنحكم بها على الآثار الفنية التى لم تخلق بعد . ومن أغرب ما قرأت من ذلك قول ابن قتيبة فى مقدمة كتابه الشعر والشعراء : « وليس لتأخر الشعراء أن يخرج عن مذهب المتقدمين فى هذه الأقسام - أقسام القصيدة - فيقف على منزل عامر ويكفى عند مشيد البنيان لأن المتقدمين وقفوا على المنزل الدائر والرسم العاقى ، أو يرحل على حمار أو بغل فيصفهما لأن المتقدمين رحلوا على الناقة والبعير ، أو يرد على الماء العذبة الجوارى ، لأن المتقدمين وردوا على الأواجن الطوامى ، أو يقطع إلى المدوح منابت النرجس والورد والآس لأن المتقدمين جروا على قطع منابت الشيع والحنوة والعرار » .



ونحن أمام هذين الطرفين لاننكر أن هناك مواهب فنية تستطيع بعد عهد قصير من أدوار الدراسة أن تكون طيبة مواتية تنمر العجب في الأدب أو سواء ومن الحق على النقاد أن يهيئوا لها سبل النبوغ ، ويقوموا منادها لتسلك طريق الرشاد . وهم حين يفعلون ذلك إنما يتقيدون بهذه القوانين الفنية العامة المرنة التي اشتقوها من الآثار الفنية الخالدة فيقفون موقفاً وسطاً بين المحافظة على أصول الفن وبين إفساح المجال للعبريات المبتكرة الحديثة ، أما أننا نهمل القديم خطأ واضح ، فيه تقطيع أوصال التاريخ من جهة ، وفيه إلغاء لجهود الفنانين السالفين من جهة ثانية . كذلك من العقم في التفكير ومعارضة تيار الحياة أن نفى فيما قال الأولون ورسموا وبخاصة في مجال الفن لأن الفن صورة الذوق ، وهذا متغير بحكم الزمان والمكان . وليس من شأن الفن أن يكون عالمياً دائماً بل هو قومي في أصله وطبيعته وغالبيته ، فلا نرى فيه هذه القوانين الحسابية والمنطقية التي تعلق على الزمان والمكان . وقد سلك الأدب العربي في تاريخه هذا المسلك الوسط ، فلم يبق جاهلياً ولم يسبق عصوره التاريخية . ونحن حين ندعو اليوم إلى التجديد فانما نبتغيه في حدود إحياء القديم قبلاً والمحافظة على أصول اللغة وطابع الأساليب العربية مع إلباسه روح عصرنا وشيأته العقلية والوجدانية الجديدة . ولست أطيل هنا بذكر الأمثلة ، فهذا النثر الحديث أصدق مثال للأدب الذي يحتفظ بالأسلوب المستقيم ، والموضوعات التي لا تكون إلا في القرن العشرين . هذا من الناحية العامة . وأما من الناحية الخاصة فنرى الفن أديباً أو رساماً أو موسيقاراً إنما يبدأ حياته بتأثر الماضين وتقليدهم فيما تركوا من آثار ، ويكشف في أثناء ذلك بعض أسرار الفن ، ثم ينزع بعد نزعاته الخاصة التي تطبع بطابعه الشخصي ولكن في دائرة الأصول الفنية العامة . أرأيت أن المجددين من الشعراء والنقاد استطاعوا أن ينفصلوا عن القديم ويستأنفوا جهوداً طريفة في كل شيء ؟ كلا ، ألا إن

الأدب كغيره من الفنون يتكى على الماضى ويتعلق بالآتى . ولكنه بطيء التحول لشدة اتصاله بالمواهب النفسية ، والتقاليد الاجتماعية ، والتفاته إلى الماضى يأخذ عنه مقلداً أو مفتوناً ، وهذه عوامل يعوزها الأناة حتى تستحيل وتنشئ ملكات جديدة يصدر عنها أدب جديد ، ولا سيما فى فن الشعر الذى يتخلف عن النشر فى الاستحالة والتجديد ، وسيأتى القول فى ذلك .

( ٥ ) آخر ما أشير إليه من هذه الصلات بين الأدب وسائر الفنون الجميلة إنما هو هذه الصلة الوثيقة بين النظم والموسيقا . وإذا ذكرت الموسيقا فقد ذكرت قبلها أو معها فن الغناء ، فن المعروف أن الانسان تغنى أول الأمر عواطفه بأصوات مبهمة لاتفصح عن معان وإن كانت ألحانها قد صورت حماسه وأفراحه حيناً ، ثم أتراحه وآلامه حيناً آخر . وبعد ذلك حلت الكلمات محل هذه الأصوات فاختلط بذلك الفنان معاً : فن الغناء وفن الأدب ، وقد بقيا هكذا إلى الآن . فالأدب يضع الأنشودة ذات الأفكار والعواطف ، ويسلمها إلى الغناء الذى يخضعها للألحان تلائم معانيها وأغراضها فيسمع الناس من ذلك فنيين ، فيطربون بالأنغام الغنائية ويعجبون بالنصوص الأدبية . ولكن هذه الأنغام لم تقتصر على الحناجر والأنفواء بل انتقلت إلى الأدوات الموسيقية المتخذة من القصب أو النحاس ، واستطاعت هذه الأدوات أن تفتن فى الألحان ابتكاراً وتنوعاً حتى استطاعت أن تسجل الطبيعة وتمثل نزعات النفوس ، وتصور أعماق المعانى الاجتماعية ، وكان منها نوع ساذج اكتفى بالألحان الخالصة فى التعبير عن الوجدان الانسانى ، تستمع إليه فتعرف أى شعور يصور . ولرجال الموسيقى فى ذلك براعة فى تأليف الأدوار وتنويعها بالعنوانات كما هو ذائع معروف .

وهناك نوع آخر من الموسيقى مركب ، هو الموسيقى الأدبية ، ليس ألحاناً خالصة لكنه ألحان لقطع أدبية تسمعها فتنتقل منها إلى ما وراءها من شعر منظوم .

ذلك حين يضع الأديب قطعة للغناء الموسيقى فيأخذها الملحن ويختار لها الألحان الملائمة ويسجلها في المجسدة ( النوتة ) ، ثم تغنى ، فتسمع الأدب والغناء . وأخيراً يعمد الموسيقار إلى ألحان هذه القطعة فيوقعها على العود أو القيثارة أو ( البيانو ) من غير غناء ، فتسمع الألحان فتعرف الدور ، وتقول : هذا نشيد مصر مثلاً . وقد تشترك — وأنت بعيد — مع الآلة العازفة وتسايروها بإنشادك . وفي هذه الحال نجد الأدب ذاب في الموسيقى ، واستحال فناً تلحينياً أو تجد الفنين قد اتحداً معاً فصاراً أديباً موسيقياً أو موسيقياً أديباً ، وتلك هي نهاية ما يصل فناً بآخر .

وأما إذا قصدت حيناً إلى دراسة هذه المجسدة فإنك واجد أن القطعة الأدبية قد وزعت كلماتها بين الرموز والعلامات الموسيقية لبيان ألحانها التوقيعية ، وإذا تعمقت قليلاً في الدرس علمت أن أوزان العروض هي أوزان الغناء والموسيقا تعوزها دراسة خاصة لا بد منها بعد هذا السكوت العميق . فقد آن الأوان لدرس العروض درساً موسيقياً وتبيين الصلة بين المقاطع الشعرية والغنائية حتى تذهب عن العروض جفوته ، وتكشف أصوله ، ويفتح أمامه سبيل التجديد النافع<sup>(١)</sup> .

---

(١) راجع : فن لإنشاد الشعر العربي تأليف الأب أغسطى فسكىنى الفرنسيسى . ترجمة : أسطفان سالم الفرنسيسى والدكتور إسحق موسى الحسينى ١٩٤٥ بالقدس .

# الفصل السادس

## وظيفة الأدب في الحياة

كانت نشأة الأدب ثمرة لحاجة الإنسان إلى التعبير عن عقله وشعوره ، شأنه في ذلك شأن الفنون الرفيعة التي اهتدى إليها الناس واتخذوها وسائل مختلفة لتصوير ما في نفوسهم من أفكار وعواطف ولنقلها إلى غيرهم من القراء والسامعين الذين يعيشون معهم أو يخلفونهم في الحياة . وإذا كان لكل من الفنون الرفيعة — كالرسم والتصوير والموسيقا — ميزته في التعبير عن جوانب النفس ومواهبها وفي التأثير فيها فإن الأدب يجمع أكثر خواصها ويزيد عليها الافصاح ، وسهولة التناول والذيق وقيامه بأكثر مهام الحياة ومطالبها الثقافية والتأهيلية ، إذ يأخذ من الموسيقا ألحانها الظاهرة في جمال الأسلوب ، ومن الرسم جماله ومعانيه التي ينهض بها الوصف الأدبي ، ومن التصوير — النحت — فكرته التي تعد في الأدب هيكله وسنده الأول ثم يمتاز بالافصاح المبين والاتصال بكل ما في الدنيا من معرفة وتمدين ورق حتى إذا أنت تصورت الدنيا بلا أدب فقد محوتها أو محوت منها الحياة ، والانسان الذي يعوزه الأدب هو الذي أعوزته الحياة إذ كان الأدب صوتها العالي ولسانها المعبر ، والرابطة التي تضم بين أناسها المبعثرة وأجيالها المتعاقبة .

وإذا شئنا أن نجمل القول في هذه الوظيفة التي ينهض بها الأدب في الحياة قلنا إنها تنحصر في شيء واحد هو التهذيب ، فالتهذيب الانساني يعد الغاية الأخيرة التي تنتهي عندها جهود الاداء ، والتي تمثل مهمة هذا الفن العظيم ، والتهذيب يتجلى في أمرين اثنين : الإفادة والتأثير . وهذا أمر طبيعي فإذا كان الأدب

يصور العقل والشعور من ناحية الأديب المنشئ ، فإنه لدى القارى يتجه إلى عقله  
بالتقافة والإفادة ، وإلى عواطفه بالتأثير فيبعثها قوية صادقة سامية تحرك الحياة  
والأحياء إلى أسمى غايات المجد والكمال .

وإذا كان لابد أن نشير إلى المظاهر التى تتجلى فيها وظيفة الأدب وفوائده  
في الحياة فالتا نذكر الأمور الآتية لاعلى سبيل الحصر بل لأنها مثل إيضاحية  
ليس غير<sup>(١)</sup> .

( ١ ) أول ما نذكر من ذلك وأجمعه لمهمة الأدب أنه يصور ما في نفس  
الانسان من فكرة وعاطفة أو حادثة هامة لها مغزاها ، ثم ينتقل ذلك إلى نفوس  
القراء فيعينهم على فهم الحياة ويوقظ مشاعرهم السامية القوية ، ويوجه نفوسهم  
بذلك إلى الغايات الانسانية النبيلة ، وهذا هو ما اعتاد النقاد أن يسموه إيصال  
التجربة Experience إلى الآخرين<sup>(٢)</sup> وطبيعى أن تكون هذه التجربة قيمة  
حادثة تؤثر في الأديب فتوقظ فكره وشعوره ثم تأخذ صورة معنوية جديدة  
تستدعى صورة انظرية ملائمة تنقل صورتها الأولى إلى نفس القارىء وتوجد هذا  
الشعور المشترك بين الناس في غالب الأحيان . والأديب بذلك هو الرسول الذى  
يتلقى — بعقريته — من الحياة جمالها وفلسفتها فيبلغها الناس في قصته أو مقالته  
أو قصيدته ، ومن منا ينكر على أبى العلاء حين قال : —

زُحِلُّ أَشْرَفُ الْكُوكِبِ دَارًا مِنْ إِقَاءِ الرَّدَى عَلَى مِيعَادِ  
وَالثَّرِيَّا رَهِينَةٌ بِافْتِرَاقِ الشَّمْلِ حَتَّى تُعَدَّ فِي الْأَفْرَادِ  
أنه أدرك منتهى الحياة وفناءها المحتوم ، وصوّر ذلك بما ينتظر الكواكب  
من قدر مقدور وأجل صارم فنقل إلينا فكرته الصحيحة وشعوره الأليم الساخر

(١) راجع literature and life ص ١ — ١١ .

(٢) لاسل أبركرمى : قواعد النقد الأدبى ترجمة محمد عوس ، ص ٦٤ .

عميقاً صادقاً جميلاً ، ودعانا إلى التفكير في مصيرنا وترك الغفلة والغرور ؟ فهذه النظرة الأليمة ثمرة أمرين : هذا القدر النافذ وانفعال المعرى به وقد عرضت علينا في هذه الرموز الخيالية واللفظية فكانت تجربة صادفت كفاءها من تصور جميل وأداء بليغ ، وتأثير قوى مفيد .

(٢) والأدب ينهض بعبد الثقافة العامة ويصل بها إلى طبقات الشعب متوسلاً إلى ذلك بالكتب المؤلفة والصحافة السائرة ، والقصص الجميلة والدواوين العظيمة وكل وسيلة قلمية أو لسانية ، وهو يؤديها بطرق شتى ، فهي مرة حقائق خالصة في العلوم والفلسفات ، ومرة حقائق تعينها العاطفة وتكسيها قوة وجمالاً كما في التاريخ والنقد ، وتارة عواطف قوية تسند إلى حقائق الحياة فتبعث في العقول يقظة وفي الخيال سمواً وذلك شأن الروايات والقصائد والخطابة ونحوها من فنون الأدب الجميل . والأدباء بذلك معلمو الشعوب وحكامهم الروحيون الذين يرشدونهم إلى الحق ، ويهدونهم إلى الرشاد ، ويهبون لهم الحياة الصحيحة « وللسنا في حاجة إلى أن نشير إلى أهمية الشعر — والأدب جميعه — في رقى النوع البشرى وتهذيبه ، فقد عمل الشعر كما عملت العلوم على إسعاد الإنسان ، وكان للخيال الذي يتضمنه الشعر ما للحقائق العلمية التي تقررها العلوم من الأثر الكبير في تغيير نظم الحياة وتكييف عقلية الأدميين ، فبينما الحقائق العلمية تكون مقررة القواعد ثابتة الأساس ، سهلة الاتباع ، إذا بالخيال الذي يتخلل ثنايا الشعر عون على أن يأخذ بيد الإنسان ليرفعه من وهدة عميقة مظلمة إلى شاطئ عال مرتفع ملىء بالنور والحياة حتى يمكنه أن يطل على سبل تقدمه ورقيه فإذا هو يراها شاخصة واضحة ، وإذا هو بتكرار النظر يعرفها ويتحقق مسالكها وإذا هو بعد فترة وجيزة أو غير وجيزة يضع قدمه على أبوابها فيسير فيها على طريق مستقيم »<sup>(١)</sup> وللحرص

(١) دائرة المعارف البريطانية مادة poetry .

على اقرار الثقافة وإذاعتها في جميع الناس تحقيقاً للمساواة أو تقريباً بين الطبقات .  
مال كثير من الكتاب إلى المبوط بالأساليب إلى مستوى الجماهير الجاهلة  
لنستطيع الفهم والأخذ بأسباب الرقي والتعليم .

( ٣ ) والدين نفسه مدين للأدب بتقييد دعوته ، وشمائه والدعوة إليها  
وإذاعتها في البشر أو الجماعات ، فكتبه المقدسة نصوص أدبية من الطراز الأول  
أو معجزات بيانية لاتساعى ، ورسله الكرام اعتمدوا على الأدب في أداء رسالتهم  
وإبلاغها الأمم وكان منهم الخطباء والمجادلون الذين استولوا على مقاليد الفصاحة  
والبيان ، وتبعهم في ذلك الصحابة والتابعون والعلماء فنهضوا بالدعوة والإرشاد  
والندوين وبعثوا في أساليب الأدب روحاً دينياً شعاره المحبة والسلام ، والتآخى  
والمساواة والشفقة ، فاستطاعوا أن يصفوا النفوس من أدران الرذائل وأن يسموا  
بها إلى درجات الطهر والفضيلة . وليس ينكر من كان بين الدين والأدب من  
صلات قديمة ، فان الأناشيد الدينية من فنون الشعر الجميل ، والدين والأدب  
يتأثران بالالهام ، ويقصدان إلى تهذيب الجنس البشرى ، ذلك عن طريق الشعائر  
الدينية المقدسة ، وهذا عن طريق العواطف الصادقة والأخيلة الجميلة ، وأقدر  
رجال الدين على النهوض بواجبهم هم الأدباء الذين أتوا من صدق الشعور وملكة  
البيان ما يعينهم على إدراك الفضائل الدينية وبثها في نفوس البشر . وقد قال  
سيدنا موسى عليه السلام يخاطب المولى جل جلاله لما بعثه إلى فرعون وقومه :  
« وأخى هارون هو أفصح منى لساناً فأرسله معى ردهاً يصدقنى ، إني أخاف أن  
يكذبون »<sup>(١)</sup> . وكان سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام أفصح العرب ، وكان  
القرآن معجزة الاسلام الأدبية وكان الأدب العربى من خير الوسائل لفسر الدين  
حتى أشرب روحه واتجهت دراسته إلى تعرف إعجاز القرآن واستنباط الأحكام .

الشرعية منه ، على أن تاريخ الديانات كلها حافل بذكر الأدباء الذين كان لألسنتهم وأقلامهم أبلغ الأثر فيما قصدوا من إصلاح وهداية .

( ٤ ) والأدب عماد النهضة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية يسجلها ويسايرها ويفذوها ويأخذ بيدها إلى سبيل النجاح ولذلك يكثُر الشعراء والكتاب والخطباء في عصور الثورات والانتقال والاشراق الفكري ، تلك العصور التي تؤذن بحياة جديدة وتصدم فيها العواطف والنزعات وتتزاحم الآمال والرغبات فاذا بالأدب صحيفة ذلك وتاريخه الحي الصادق ، تقرأ شعراً رائعاً ، وخطباً حماسية ومقالات تقريرية ، وقصصاً تحليلية . لاحظ ذلك إبان ظهور الاسلام ، وقيام الدولة الأموية والعباسية وحول المذاهب الدينية والسياسية . وتقدم الحركات العلمية والفلسفية . والأدب هو الذي سجل مذاهب طرفة وأبي نواس وزهد أبي العتاهية وحكمة المتنبى وفلسفة المعري وسخرية الجاحظ ، وهو الذي سجل نواحي النشاط المعري الحديث والنهضة الفكرية في الشرق العربي جميعه ، فصار مرآة هذه الحركات ومرجعها الصحيح « والحضارة الانسانية ثورة متصلة مظهرها الأدب والفن ونحن في مصر وفي الشرق كانت لنا حضارات مختلفة انطوت ثم أخضعتنا الظروف لحكم الحضارة العربية . وقد قامت هذه الحضارة الغربية أول قيامها على بعث فلسفة اليونان وتشريع الرومان واتجاه الأدب هذه الوجهة التي ترسمها هذه الفلسفة وهذا التشريع وما أحاط بهما في عصرهما من صور الفن والأدب . ثم جعلت أوربية تستقل بحضارتها رويداً رويداً لتقيمها على الأساس العلمي الذي وضعه ديكارت في القرن السابع عشر . . . والأدب العربي المعبر عن هذه الحضارة لا يمكن أن ينسى هذه الصلة<sup>(١)</sup> » ولا ينكر أحد ما لأقلام الأدباء وألسنتهم من آثار خطيرة في إذكاء الثورات ، والتأثير في الحكومات ، وحرب الطغاة والمستبدين ، وثل

(١) هيكل : نورة الأدب ص ١١ .



عروش الجبابة ، وتغيير النظم والقوانين ، فذلك كله بارز الأمثلة في حياتنا المعاصرة وفي أطوار التاريخ<sup>(١)</sup> ودليل على أن الأدب يحمل حقاً رسالة الحق والجمال والحرية والعدالة ويجاهد في سبيل ذلك غير واثق ولا يائس حتى يضمن للناس حياة حرة عادلة كريمة هي الحياة الخليقة بالإنسان . وربما كانت هذه المهمة خير ما ينهض به الأديب الذي يعرف وظيفته ويحترم نفسه ، ولا شك أن العلم والفلسفة عمدته في تعرف الحق والجمال والحرية ، والأدب كثمرة جذورها العلم وهيكلها الفلسفة .

( ٥ ) والأدب بعد ذلك وسيلة الاستمتاع بجمال الطبيعة والحياة إذ يجد فيه القارئ ما استتر وما ظهر من جمالها مصوراً مفسراً ، وهو مسرة النفس وسلوى الحزين يجد فيه الأديب متنفساً لهموه وأكداره ويجد فيه الفرح صورة لشعوره ويظفر منه الإنسان بمتعة قل أن يجدها في غيره من الفنون سهولة وشمولا وصراحة وقد قال هجل : « حتى الدموع على الأخزان أعوان وحتى رموزها فيها للشجى سلوان لأن الإنسان إذا كظّه الحزن تلمس مظهرًا لذلك الألم الباطن ولكن العبارة عن هذه الإحساسات بالألفاظ والصور والألحان أوقع في القلب وأطف في النفس وأروح للصدر . ولقد فطن القدماء إلى نفع ذلك فكانوا يقيمون المآتم فيرى الحزين غيره ينطق بلسان كده ويحمله كثرة ما يسمع وترديد ذكر ما يفجع على التفكير فيه فيروح عنه ذلك ويمسح أعشار قلبه بيد السلوان ولذلك كانت غزارة الدمع ووفرة المنطق خير وسيلة لأطراح أعباء الموم عن عائق الشجى والترفيه عن القلب المثقل بالأوجاع »<sup>(٢)</sup> .

( ٦ ) وقد أصبح الأدب بعدما تهذب فيه فن القصة خاصة ، وسيلة فذة لدراسة الحياة الاجتماعية والنفسية ، يرى فيه القارئ ما بين الأفراد من صلات

(١) المرجع السابق ص ١٧ . (٢) الشعر المازني ص ٤٢ .

ووفاق وخلاف ويشهد سلطان الفرائز والطبائع قوياً غلاباً في أكثر الأحيان ويشعر بنفوذ الحب وقوته في عهد الشباب ويفهم بأسلوب عملي مثل تعدد الشخصية الفردية أو انقسامها ، ويأمن به الأديب مضار التمهريج حين يجرى حواراً بين أشخاص رمزيين ويصل بما يريد إلى أعماق النفوس معلماً مؤثراً .

وخلاصة القول أن الأدب بمعناه العام وسيلة الحياة الانسانية المهدبة ، يصل بين الأفراد والجماعات ، وبين العصور المتوالية والأجيال المتعاقبة ، ويسمو بالجنس البشرى إلى مستوى فكري وشعوري وخلقى جليل .

---

## الفصل السابع

### العوامل المؤثرة في حياة الأدب

- ١ -

إذا صح ما قيل من أن الأدب صورة للحياة الإنسانية ، وسجل لتاريخها المطرد ، ومعرض لبيئاتها المختلفة ، يستحيل باستحالتها ، وتنطبع فيه آثار عقائدها الدينية ، ومظاهر حضارتها السياسية والعلمية والفنية حتى يعود حكاية لأطوارها الدينية . ومظاهر حضارتها السياسية والعلمية والفنية حتى يعود حكاية لأطوارها ومرجعاً لماضيها — كان من الحق علينا أن نقبين هذه الأسباب التي تغير الحياة وتنشئ أطوارها المتعاقبة ، فيتغير الأدب وتنشأ أطواره أو تاريخه تبعاً لذلك . وإذا رجعنا إلى الأسباب التي يسردها الباحثون ، والتي من شأنها أن تغير في الحياة وجدناها كثيرة متنوعة ، ولكننا نستطيع أن نجتمع كل طائفة منها إلى أصل واحد ، أو نردها جميعاً إلى سبب رئيسي واحد هو البيئة ، على شرط أن نفهم من البيئة معناها الواسع الذي يتناول العوامل المكانية والزمانية الأصلية والطارئة التي تتوافر في بقعة ما ويتكون منها جميعاً مزاج هو ما يسمى البيئة أو الهيئة الاجتماعية التي تطبع كل ما يتصل بها بطابعها الخاص ، ثم يكون الأدب الذي يصورها تاريخها الصادق يحكيها هادئة مستقرة أو ثائرة مضطربة ، تنزع إلى المثل الصالحة أو تتردى في مهاوى الذلة والانحطاط ؛ ومع ذلك فلنذكر هنا أهم هذه العوامل مشيرين في إيجاز إلى مثلها في تاريخ الأدب العربي ، وفيما اتصل به من آداب :

( ١ ) من هذه العوامل المسكان ، وهو الإقليم الذي يعيش فيه الشعب عيش قرار واستيطان أو يضطرب بين حدوده ، فتتأثر حياته الحسية والمعنوية

بطبيعة هذا الإقليم وخواصه فإذا ما عبر الأدب عن هذه الحياة كان فيه طبيعتها وأحوالها الاجتماعية وآثارها في نفوس الأفراد ومن هنا اختلفت الآداب باختلاف الأقاليم ، فإذا انتقل الشعب إلى بيئة أخرى تخالف بيئته الأولى وقضى فيها مدة كافية أو نشأ منه جيل جديد تربى في ظل هذا السكان الجديد ، تغير كثير من نظم حياته وملابسها فيأخذ في تصويرها بأدب آخر يختلف عن السابق بمقدار ما حدث في حياته من استجابة وتغيير . هذه الأمة العربية كانت في الجاهلية تحيا حياة بدوية صحراوية تمتاز بالفقر والخشونة والضرب في جوانب هذه الفياثي ، وبالعصبية القبلية ، والحروب المطردة ، والبداة الثقافية ، فكان الأدب أو الشعر الجاهلي خشن الألفاظ ، بدوي الخيال ، يتخذ عناصره من الجبال والوعول والدواب والرمال ، أولى العواطف ، سطحي الأفكار ، أهم فنونه فخر وحاسة وهجاء ووصف لمشاهد الجزيرة العربية وحوادثها الداخلية ؛ من رجاله أمثال الشنفرى وتأبط شرأ والسلميك بن الساسكة ، هؤلاء الصعاليك الذين مثلوا نزعات جاهلية طريفة لا توجد إلا في مثل الصحارى العربية . فلما زایل العرب بلادهم إلى غيرها كالشام والعراق ومصر والأندلس وخضعوا لمؤثرات طبيعة جديدة ووقعت أبصارهم على مشاهد أخرى ، تأثر الأدب عامة فلان أسلوبه ، وتجددت أخيلته ، واتسعت أغراضه ومعانيه ، ثم تجده في العهد العباسي يعود فيتغير باختلاف طبيعة هذه الأقاليم وما امتاز به كل منها ، فادب عراقي ، وآخر شامي ، وثالث مصري ، ثم الأدب الأندلسي ولكل منها طابعه المكتسب أو لا من طبيعة الإقليم وميزات البيئة .

( ٢ ) الزمان — يلي ذلك انتقال الأمة من طور إلى آخر أو تدرجها من البداوة إلى الحضارة فذلك يغير نظم الحياة عندها ، فتستقر بعد الاضطراب وتغنى بعد الفقر ، وتأخذ في التفكير المادى والامتنان في وسائل العيش ، وتغير كثير من تقاليدها الاجتماعية ، وربما فشا فيها اللهو والعبث ، وانحلت مقاييس الأخلاق فينشأ عن

ذلك حياة أخرى عصرية تمتاز بسعة المعارف ، وجمال الخيال ورقه العيش وصفاء الذوق . ولذلك كله أثر في الأدب ، فاذا موضوعات جديدة ومعان مبتكرة عميقة وأخيلة بدیعة ممتازة وأساليب عذبة موسيقية ، تمثل كلها أدبا حضريا لحياة حضرية . تلاحظ ذلك حين توازن بين الأدب العربي في العصر الأموي وبينه في العصر العباسي أو في عصرنا الحديث ، فان هذين الأخيرين امتازا بما لا يس الحياة من ترف شامل ومناظر جميلة وفنون مختلفة ، وحرية اجتماعية كانت لها آثارها في هذا الأدب الجديد .

والتقدم العلمي من مظاهر الحضارة وآثارها اللازمة ، وهو ذو آثار عدة في الأدب ، فهو من جهة يزيد المعاني كثرة وعمقا ، ويسع عليها التنسيق والتحديد ويبريء الأدب من الأخطاء ويكسبه صفة ثقافية نافعة كما تجد ذلك عند الجاحظ وابن المقفع وعند أبي تمام وابن الرومي والمتنبي والمعري ، وعند المعاصرين من الكتاب والشعراء . وهو من جهة ثانية يقوى النثر ويأخذ بيده ، وربما يوجد له أو يوجد منه أنواعا جديدة ، وذلك يشرح لنا تقدم النثر في القرن الثالث الهجري ومشاركته الشعر في بعض فنونه ونهضته بتدوين العلوم والفلسفة ، واعتماد الدولة عليه في شئونها السياسية والإدارية والاجتماعية . ذلك لأن العلم استقر ، وساعد في نضج التفكير واحتاج العقل أن يدون ثماره فكان النثر هو الوسيلة الصالحة لذلك . وثالثا نجد انتشار العلم بين الطبقات يقرب بينها ، ويعدها للانتفاع بالأدب بعدما كان هذا وقفا على طبقة المستنيرين والسراة ، فتسع دائرة الأدب ، ويضطر المؤلفون إلى إشباع هذه الرغبة بين كل الطبقات فتنشأ فنون ملائمة كالقصة ، والمقالة ، والحوار ، وتنوع الأساليب إرضاء لحاجة الجماهير ويبلغ الأدب بذلك أقصى مداه . وأمثلة ذلك واضحة في عصرنا الحالي إذ يتمتع بالأدب كل من يحسن القراءة أو الاستماع .

(٣) مسألة الجنس ، وحينما نذكر لكل جنس خواصه في التفكير والتعبير فانما تتناول المسألة من قريب ، والظاهر أن هذا الاختلاف الذي نلاحظه بين الشعوب في المواهب النفسية كان ثمرة للبيئة ولعوامل متلاحقة أثرت في كل جماعة فأكسبتها خواص تخالف فيها الجماعات الأخرى ، وطال العهد على ذلك وانتقل بطريق الوراثة إلى الأجيال المتعاقبة فصار كأنه فارق خلق بين هذه الأجناس البشرية ، فالأمر راجع في أصله البعيد إلى عوامل مكانية وزمانية وراثية قديمة العهد وآية ذلك أن الاختلاط بين الأجناس المختلفة إذا طال وقوى يقرب بين أفرادها في طرق التفكير وفي نظم الحياة ويكاد يمحو هذه الفوارق الظاهرة . على أن ما توافر الآن من سهولة المواصلات الحسية وتمازج الثقافات الانسانية بالترجمة والتعليم أخذ يضعف من شأن المسألة الاقليمية والمسألة الجنسية أيضاً . والذي يلاحظه الباحثون أن بعض الأمم القديمة كالعرب طبعت على دقة الحس وصفاء الطبع وحدة الذكاء فبرعت في الشعر وكان أكثر مادتها الأدبية القديمة فلما تحضرت وتهايا لها النضج العقلي ارتقى النثر وكان له منه حظ موفور ، ولكن اليونان امتازوا بنضج شعوري وعقلي باكر فكان لهم نبوغ ممتاز في الشعر والنثر جميعاً في حين أن الرومان امتازوا في فنون الحرب والسياسة والاختراع . كذلك يلاحظون أن الجنس اللاتني في جليله يميل إلى الرقة ولين الجانب والتشبث بالحرية والعناية بالفنون الجميلة ، والفرنسيون والايطاليون يمتازون في ذلك عن الجرمانيين ، وهؤلاء يميلون إلى القواعد والقوانين في كل شيء ومحاولة إخضاع الفنون لأصول ثابتة تشبه الأصول العلمية<sup>(١)</sup> .

ومهما يكن الأمر فليس من شك في أن الآداب تختلف باختلاف الشعوب وهو اختلاف يتناول طريقة التفكير في ترتيب المقدمات والحيطة في الأحكام

(١) أحمد خفيف : مقدمة لدراسة بلاغة العرب ، ص ١٣٤ .

ثم طريقة وعناصر التخيل المثارة حتماً بالمشاهد الطبيعية القديمة والحديثة لكل شعب وأخيراً طريقة التعبير التي تخضع للعنصرين السالفين ، ولا يزال أساتذة اللغة الانجليزية والفرنسية في المعاهد المصرية يوصون طلبة الانشاء أن يفكروا بالعقل الانجليزي مثلاً قبل أن يعبروا ، وبذلك تستقيم لهم العبارات الانجليزية . ومؤرخو الأدب العربي يلاحظون أن الآداب الفارسية ذات شخصية واضحة وأنها أثرت في الإنشاء العربي كثيراً ، كما أن الأدباء من الفرس والروم الذين كتبوا باللغة العربية كانوا شيئاً طريفاً ممتازاً كعبد الحميد الكاتب وابن المقفع وابن الرومي وأبي تمام إن صح ما قيل عن أصله الرومي<sup>(١)</sup> .

( ٤ ) ومن أهم العوامل ما يحدث بين الشعوب من اتصال ، وهذه الصلة تكون صلة حربية وتكون صلة سلمية بالاختلاط والمصاهرة والاتجاه ونحوه . وتكون عقلية بالترجمة ودراسة اللغات الأجنبية وما دون بها من علوم ، وفنون ، وآداب وفلسفات ؛ فإن الحروب تظهر كل أمة على كفاية الأخرى ، وتصل بين الغالب والمغلوب وينتفع كل بما عند الآخر من آثار الحضارة ، وقد يكون المغلوب أبلغ تأثيراً في الغالب ، ولما فتح الرومان في بلاد اليونان اكتسبوا من حضارتهم ما ظهرت آثاره في آدابهم ، كذلك أفاد العرب من الفرس والروم وسائر البلاد التي فتحوها فأثري الأدب العربي من ذلك كثيراً ، على أن الحروب بين الشعوب تنمي فنوناً حماسية وربما توجد الشعر القصصي ، فليست الإلياذة والشاهنامة وقصة عنزة وسيرة بني هلال والأميرة ذات الهممة إلا من آثار الحروب .

كذلك الاتصال السلمي بين الشعوب يسمح لها أن تتبادل الثمار العقلية والفنية والنظم الاجتماعية كما تتبادل السلع التجارية ، وتتواصل بالجوار والمصاهرة ، وهذا واضح الأثر في تسرب المدينيات المجاورة إلى العرب الجاهلين ، ونفوذ ثقافتها إليهم

---

(١) أخبار أبي تمام للصولي ، ص ٢٤٦ .

حتى أثر ذلك في الأدب الجاهلي تأثيراً ما<sup>(١)</sup> وليست الأمة العربية بدعاً في هذا لأنه قانون طبيعي تحققه الحياة الاجتماعية وميل الناس إلى المحاكاة والتقليد لما تراه نافعاً . وأما الصلة الناشئة عن الترجمة والنقل وداسة اللغات والمعارف الأجنبية فالأمر فيها أيسر من أن يحتاج إلى شرح أو تمثيل لأن الأمم المتحضرة يأخذ بعضها عن بعض ، ويقلد بعضها بعضاً ، وتتم كل مابدأت الأخرى ، وتكمل نفسها بما عند غيرها من العلوم والفنون والاختراعات والنظم ، وتجتهد في ترجمة ذلك ودراسته ، وإرسال البعث إلى المعاهد العلمية وتعليم اللغات الأجنبية حتى أصبحت المعارف والآداب حقاً شائعاً بين الأمم وأخذ كل أدب يستفيد من غيره ، ودخلته عناصر شتى أفادها الأدباء مما يقرأون وصار من الصعب الآن رد كثير من العناصر إلى مصادرها الأولى . هذا في العصر الحديث ولسنا في حاجة لنعيد هنا ما قيل من أثر الاتصال بين العرب وبين الفرس والروم والهنود في الأدب العباسي فذلك معروف مشهور .

( ٥ ) الدين — ولا يشك أحد في سلطنة القوى على الآداب ، وربما كان الباعث الأسبق على ابتكار الأناشيد الدينية التي رتلها الجماعات البشرية في المعابد . وكثير من الديانات صحبه كتاب مقدس يعد مثلاً أدبياً ممتازاً ؛ فالقرآن الكريم معجزة الأدب العربي ، والتوراة والإنجيل يعدان في لغتهما من آيات البيان ، وللا دين كذلك تأثير على الآداب غير مباشر ، فقد أوجد فنوناً جميلة دينية حفلت بها عصور التاريخ وظهرت في المعابد والكنائس والمساجد وعدت عن أروع ما أبدعت قريحة الانسان ، والدين اليوناني أوجد التمثيل ، والدين الإسلامي أوجد التصوف ، ونهض بالخطابة ، وأثر في العلوم الدينية والبلاغية حتى كان فهم القرآن وتعرف اعجازه غاية كثير من العلوم الإسلامية . على أن الدين فوق ذلك يهذب النفس ويرقق الشعور ويسمو بالانسان إلى مستوى خير

---

(١) فجر الاسلام لأحمد أمين ، الفصل الثاني .



فاضل وبما جعله إنسانياً عاماً ، وذلك لا يمثل إلا الأدب .

( ٦ ) والحالة السياسية ذات أثر بعيد في حياة الأدب ويتراءى ذلك في عدة نواح : منها أن النهضة السياسية العامة تنهض بالخطابة لتأييد الحرية وإثارة الجماعات وتنبيهها إلى حقوقها المسلوبة وكرامتها الضائعة كما حدث في النهضة المصرية المعاصرة التي أخرجت أمثال مصطفى كامل وسعد زغلول . كذلك يشترك الكتاب والشعراء في إمداد هذه النهضة وإذكائها لتبلغ مداها . وذلك يستلزم حرية مكفولة تطلق الألسنة والأقلام ، فنجد الشعر الحماسي والوطني يقوى ويزدهر كما تجد المقالات والمؤلفات التي تتناول الحريات وحقوق الإنسان والنظم الدستورية وما إلى ذلك . ومنها أن النظام الاستبدادي العنيف يخفت صوت الخطابة ، ويذهب بالأدب الصريح الصادق الذي يصور الآراء السديدة ويمثل الحرية الفردية والاجتماعية ويحل محل ذلك أدب زائف ومدائح منافقة وآثار نفعية تخدم النظام القائم ، خوف السلطان وتملقه . ومنها أن الأحزاب السياسية كثيراً ما تنافس في السلطان الأدبي أو الحكومي فينشأ بين رجالها حوار يفيد منه الأدب حياة نشيطة ، فالمسائل تدرس دراسة عميقة شاملة والأفكار تدق وتتحرر ، والأساليب تتسكّر وتنوع ، والناس بين هذه المناقشات يدرسون ، ويتعلمون ، ويعرفون الحق والباطل . ولكم ملئت أنهار الصحف المصرية في العهد الأخير بمنظرات قيمة تتعلق بالحياة السياسية للبلاد . . والسياسة الأموية أنتجت الغزل في الحجاز ، وقوت فنون الهجاء والسياسة في القرن الأول ، كما أن استقلال الولاة في القرن الرابع أنشأ الآداب الإقليمية في الأقطار الإسلامية .

( ٧ ) وهناك أسباب أخرى تفيد في الأدب نذكر منها النقد الذي يأخذ بيد الأدباء ويرشدهم إلى المناهج الصالحة ، وتشجيع الأدباء بعرفان فضلهم ومعونتهم بالمال والانتفاع بآثارهم ، والابتسكار الذي ينهض به كبار المنشئين ليفتحوا في

الأدب موضوعات أو أساليب طريقة تصبح سنة متبعة ، وكذلك التقليد وهو نافع للأديب المبتدىء الذى يترسم خطا السابقين حتى إذا نبه شأنه ابتدع ماشاء ، كذلك تقليد الآثار الأدبية الممتازة سواء ذلك فى الأدب القومى أو الأجنبى .  
وخلاصة الموضوع أن أى أثر فى الحياة يبدو فى الأدب إذ كان الأدب ترجمانها الدقيق العميق وتاريخها الصحيح .

— ٢ —

وهنا يعرض لنا هذا السؤال : أيهما أطوع لعوامل التطور ، وأسرع استجابة لأسباب التجديد : الشعر أم النثر ؟  
وقبل الإجابة عن هذا السؤال نلاحظ أن الأدب بطبيعته بطيء التطور بالنسبة للعالم ، فالأول أشد اتصالا بالمواقف النفسية ، والأذواق الفنية وهذه بطيئة التطور تعوزها تجارب شتى ، وأوقات طويلة حتى تستحيل وتنشئ ملكات جديدة فى التصوير والتعبير لذلك كانت الطفرة فيه شذوذاً ، أما العلم ، وهو ثمرة العقل فإنه سريع التحول ، مستعد لنسيان الماضى والانفصال عنه وترك تقليده إذا ماظهر على جديد صائب ، فإذا لاحظنا أن الشعر أدخل فى باب الفنية من النثر استطعنا أن نقول إن النثر أطوع لعوامل التطور ، وأسرع خضوعاً لأسبابه ، وأوضح تمثيلاً لعصوره فى تاريخ الأدب .

وهذه الظاهرة ترجع إلى أمور : —

منها أن النثر فى الأصل لغة العقل يقرر قضاياها ويسجل نتائجها ، والشعر لغة العاطفة غالباً بصورها ، ويشيرها ، والعقل أسرع إلى التطور وأقبل لعوامل الرقى لأنه تفكير نظرى غير مقيد بعرف ولا تقاليد بخلاف العاطفة التى تتجاذبها تقاليد طبعية واجتماعية تبطئ سيرها ، وتجعل ثمارها — كالأدب والموسيقى والرسم والتصوير — أدل على شخصية الشعوب ، ونتيجة ذلك أن النثر — لغة العقل — أسرع إلى الاستحالة من الشعر .

ومنها أن الشعر أدخل في باب الفن من النثر ، والفن يقوم على الماضي إلى حد كبير ، يتأثر نماذجه ، ويتمثل آثاره بخلاف العلم فانه يتخذ موضوعاته من الواقع الجارى وصلته بالماضى صلة متابعة واستمرار أكثر منها أخذاً واستلهاماً ، فالشعر يلتفت إلى الوراء ، والنثر يلتفت إلى الأمام ، وذلك يدفع بالنثر قدماً بقدر ما يقف بالشعر ، فالأوزان ثابتة غالباً ، والصور الخيالية لا تنكاد تغير ، والقصيدة كما هي ، والعبارات يصيبها جود في كثير من الأحيان .

ومنها أن الصورة الفنية للشعر بطيئة التحول لبطء التحول النفسى للشعراء ، ولهذا الخصائص الموسيقية الثابتة ، والتقاليد الموروثة ، والأخيلة المبلورة ولكن الأمر في النثر أيسر لتحلله من ذلك ، ولحرية التصرف في أساليبه ، لذلك نجد في التاريخ الأدبي اختلاف العبارات والشخصيات عند السكتاب أكثر منه عند الشعراء لجنس الشعراء في دائرة التقليد والقيود .

وهناك أن الشعراء لاعتزازهم بمواهبهم الفنية لا يعنون كثيراً بالثقافة عناية السكتاب الذين يتعلقون بها بحكم اتصالهم بالحياة الجارية ، وذلك يجعل السكتاب أشد مجاراة للحياة ، وأقبل للديموقراطية ، وأما الشعراء فيخضعون لارستقراطية نفسية وفنية تعوقهم عن مسايرة الواقع السريع ، لذلك كان المنقفون من الشعراء كأبي تمام ، والمتنبي ، والمعري هم الذين حاولوا التجديد في الشعر ومجاورة (عموده) الذى تشبث به المحافظون .

ومرد ذلك كله أن الشعر هو الصورة الأولية الطبيعية للحياة الإنسانية ، وهى صورة شعورية ، أزلية أبدية ، لانحنى لأطوار الدنيا كما تنحنى الأمور الفلسفية ، والعقلية الطارئة ، والتي لاستقر على حال ، وإنما تأخذ كل يوم صورة جديدة تملأها عليها الحوادث والمدنيات .

هذا هو ، بإيجاز شديد ، بيان المسألة ، ومن أخذ في بسطها وتطبيقها على التاريخ الأدبي ظفر بشواهد شتى ، ومجال عريض .

## الفصل الثامن

### كيف ندرس الأدب ؟

كان من آثار النهضة الحديثة في مصر والشرق العربي أن يسلك دارسو الأدب العربي نفس المسالك التي انتهجها الغربيون في دراسة آدابهم وأن يخضعوه لبعض الطرق العلمية التي خضعت لها الآداب الأجنبية منذ القرن الثامن عشر إلى الآن ، وكان الفرنسيون من أسبق الأمم وأحفلها بهذه الدراسات العلمية التي مثلها فيلمان Villeman بعقده صلة وثيقة بين الأدب والتاريخ ، واتخاذ التاريخ وسيلة لفهم الأدب وتفسيره وتعليل مزاياه في بيئة ما إذ كان الأدب صورة للحياة الاجتماعية يتأثر بها كما يؤثر فيها ، ثم سانت بيف Sainte Beuve الذي اتخذ من سير الأدباء وتعرف حياتهم الخاصة سبباً إلى فهم آثارهم ونقدها ما دامت هذه الآثار صادرة عنهم مباشرة تمثل نفوسهم ومقدار تأثيرها بعوامل البيئة الفكرية والسياسية والاجتماعية التي خضعوا لها ، ثم تين Taine الذي غلا فطبق على الأدب مذهب الجبريين وجعله ثمرة محتومة لعلل ثلاثة : الجنس ، والزمان ، والمكان ؛ فالنصوص الأدبية — ومنشئوها — خلاصة طبيعية لخواص الشعب الذي أظلمها في زمن ومكان بعينهما ، ورجال الأدب هم الذين يمثلون روح عصرهم بما يقولون أو يكتبون ، وعلى دارس الأدب أن يتفهم أولاً هذه العوامل الثلاث ليستطيع فهم الأدب وإرجاع خواصه إلى مصادرها الأولى ثم يأتي فرديناند برونيتير Ferdinand Brunetiere فيأخذ بمذهب تدرج الأنواع ويطبقه على الفنون الأدبية من شعر<sup>(١)</sup> وكتابة وخطابة وحامسة ونسب ووصف : كيف نشأت

(١) راجع للمؤلف تاريخ الشعر السياسي وتاريخ النقائض في الشعر العربي .

واستجالت على مر العصور ، وكيف تأثر لاحقها — على يد الأدباء — بسابقتها وكيف يؤثر الحالى فيما قد يليه . ومؤرخ الأدب عنده ملزم أن يدرس سلسلة المؤلفات والأفكار المتلاحقة والفنون المتغيرة دراسة تربينا كل شىء منها متأثرا ومؤثرا فى آن واحد ولكن جول ليميتز Jules Lemaitre يشور فى هؤلاء جميعا ويعمل لتلخيص الأدب من قيود العلم التى تناسى ما فيه من جمال ففى هو خير ما فيه ، ثم يقف بالأدب عند ما يبعثه فى نفس القارىء من تأثير وانفعال عقب قراءته أيا كان هذا التأثير ودواعيه ، لا يعنى بعد ذلك بأحكام يصدرها أوقوانين يدونها. فالأدب فن والنقد مثله لا يتسنى لصاحبهما الخلاص من ذوقه وشخصيته<sup>(١)</sup> ولا يزال الأدب يعانى فى تاريخه ونقده آثار هذا الصراع الدائم بين مذاهب العلماء ونزعات الفنانين ، وسرت هذه العدوى إلى غير الفرنسيين وإن لم تتأثر مذاهبهم تأثرا دقيقا . وسنحاول هنا الإلمام بأهم الطرق التى يهتدى بها المؤرخون والنقاد ، لتبين فائدتها للأدب ونواحى قصورها عن بلوغ الغاية . ثم نعرف أيها الصق بموضوع هذه الفصول وأهم هذه الطرق ثلاثة : —

( ١ ) الطريقة التاريخية The Historical method

( ٢ ) الطريقة الشخصية أو دراسة السير The Biographical method

( ٣ ) الطريقة النقدية<sup>(٢)</sup> The Critical metho

### أولا — الطريقة التاريخية

تقوم هذه الطريقة على الصلة الوثيقة بين الأدب والتاريخ ، فأدب أمة من الأمم يعد تعبيرا صادقا عن حياتها السياسية والاجتماعية ، ومصدرا مهنيا من

---

(١) راجع فى هذه المذاهب مقدمة لدراسة بلاغة العرب لأحمد ضيف وفى الأدب الجاهل لطله حسين .

(٢) رجعا فيما يلى من هذا الفصل إلى كتاب أصول النقد الأدبى تأليف Winchester ، الفصل الأول ومصادر أخرى .

مصادرها التاريخية ذلك بأن الأدب يلم بروح الأحداث والأطوار المتعقبة فيصورها ثم يتأثر بها فيستحيل في موضوعاته ومنونه وأساليبه تبعاً لما تستدعي الأحداث . وتقضى به الشئون الجارية . تجد شواهد ذلك في القرن الأول الهجري فشعراء الخوارج والشيعة وبنى أمية تركوا في آثارهم سجلاً للحياة السياسية ، وكان الشعر الغزلي مثلاً صادقاً للحياة الاجتماعية في بلاد الحجاز ، وكانت الخطابة دليلاً على ما يعانيه الحكماء والخلفاء من سياسة عنيفة حيناً ، ولينة مواتية حيناً آخر وكذلك الشأن في أدبنا المعاصر إذ قام الكتاب والشعراء والخطباء فدنوا في منشأهم الرائعة تاريخ نهضتنا الحديثة ، وتاريخنا الجديد . وعكس ذلك صحيح ، فإذا كان الأدب عبارة عن حياة الأمة في عهودها المتوالية فإن التاريخ كان مادة الأدب وعاملاً خطيراً في استحالته وتقدمه ، فكيف كان ينشأ الشعر السياسي أو الهجائي أو الغزلي في القرن الأول لولا هذه الأسباب السياسية والاجتماعية التي دفعت بالشعراء إلى هذه الفنون ؟ وكيف يكون للخطابة والخطباء هذا الخطر الخطير لولا ما كان أمام الساسة من معارضة حسية ومعنوية وثورات عنيفة استدعت هذا الكلام العام الذي أغنى أحياناً عن الجيوش والسلاح ؟ هذا واضح في النصوص الأدبية المتصلة بالشئون العامة مباشرة كشعر جرير والأخطل والفرزدق وقطري بن الفجاءة والسكيب وخطابة معاوية وزيد والحجاج .

ومع ذلك فإن غير هؤلاء ممن لم يشتركوا فعلاً في هذا الصراع السياسي كانت آثارهم الأدبية متأثرة بهذه التيارات أيضاً ، فالغزل نفسه متأثر بالسياسة وثمره من ثمراتها ، والهجاء الذي قام بين شعراء القبائل قد أمدته الحياة الاجتماعية والسياسة بما أذكاه وأبعد صيته ، ولم يسلم القصص التاريخي والديني من دوافع سياسية نهضت به ، فسواء أكان الأدب متصلاً بالأحداث مباشرة أم غير مباشر فهو لابد متأثر بها مؤثر فيها لا مفر من ذلك .

هذه الصلة التي أشرنا إليها تنفعنا في الدراسة الأدبية من عدة وجوه :

أولاً — أن معرفة التاريخ السيامي والاجتماعي لازمة لفهم الأدب وتفسيره ولتعليل كثير من موضوعاته وأطواره والاتجاهات العامة التي يجري فيها الأدب ويسلكها الأدباء ؛ فنهضة الشعر إبان ظهور الاسلام ثمرة لهذه الدعوة الدينية التي قسمت الشعراء قسمين : مدافع عن الدين ومهاجم له ، ونشأة الأحزاب السياسية بعد وقعت صفتين أدت إلى توزيع الشعراء بين هذه الأحزاب ، وضعف الوازع الديني أيام العباسيين جرأ أبي نواس وشيعته على هذا الأدب الماخن وشعر الخليع ، ونهضتنا المعاصرة أخرجت هؤلاء الكتّاب والخطباء الذين سايروها أحراراً ، أوفى ظل هذه السياسة القائمة .

وكثيراً ما يصعب أو يستحيل فهم نص أدبي قبل دراسة تاريخية عريضة ؛ فهذه سينية البحتري لا يمكن فهم كثير من موضوعاتها ومراميها إلا بعد معرفة هذه الصلات القديمة بين الفرس والعرب وما كان للفرس من مجد قديم في نواحي الحياة ، وكيف أعانوا العرب قديماً على الأحباش ، وحديثاً أعانوا أو أقاموا الدولة العباسية ، ثم ما كان من صراع بين الفرس والروم في جاهلية العرب ، هذه الجاهلية الفقيرة المجدية من العلوم والفنون ، وأخيراً ما كان من مقتل المتوكل بتدبير ابنه ، وغضب البحتري ورحلته إلى مدائن كسرى حيث آثار القصر الأبيض وإنشاده هذه السينية الخالدة . ونحو ذلك يقال في الهمزية وأبي الهول وتوت عنخ آمون لشوقي وفي خطابات سعد زغلول ومقالات أمين الرافعي وغيرهم كثير .

ثانياً — أن الدراسة التاريخية تفسر لنا الكتب التي تواف في فترة ما ، وفي ظل أحداثها السياسية وأوصافها الدينية أو الخلقية أو الاقتصادية إذ كانت هذه الكتب في موضوعاتها وأساليبها ووجهات نظر أصحابها ثمرة لهذه البيئة التي

تحوطها . خذ مثلاً لذلك كتب الجاحظ ولا سيما رسائله فلا يحصى لنا من دراسة تاريخ القرن الثالث دراسة علمية تتناول الثقافات التي امتزجت فيه بين المسلمين ومثلتها كتبه المختلفة وبخاصة الحيوان والبيان والتبيين ، ودراسة اجتماعية ، ودراسة سياسية تُعنى بمكانة الخلفاء ومقدار سلطانهم ، ثم هذه الفرق السياسية والدينية ، والنزاع بين العرب والفرس ، وبين العرب والأتراك ، وبين الأسر العربية نفسها . كل ذلك لازم لفهم رسائل الجاحظ واتخاذ قلمه أداة يحتج بها كل فريق . فكان هذا الكتاب الخطير يبيع أدبه لكل مشتر ، وكان يوجد هذا الأدب ما استطاع وعلى الرغم من المواقف المتناقضة التي كان يحمل عليها جاداً أو ساخراً . ونستطيع في ضوء تاريخنا الحديث تفسير أمثالنا مستقبل الثقافة في مصر لطف حسين ، وعلى هامش السياسة لحافظ عفيفي ، وتاريخ الجمعيات الوطنية لعبد الرحمن الرافعي . وكل هذه الآثار التي استدعتها حياتنا الحديثة في العلم والسياسة والاجتماع ؛ فالكتب صدى لما يجري حولها من أمور ، ونبات لهذه التربة المعنوية التي أنمرتها .

ثالثاً -- أننا معرضون للخطأ في فهم وتقدير آراء الأدباء وأفكارهم وأخيلتهم ما لم نلاحظ صلتهم بعصورهم ، ونلم بالمعارف والمذاهب السياسية والعلمية والفلسفية وبالمقاييس النقدية والخلقية التي كانت سائدة في تلك العصور والتي كان الشاعر أو الكاتب يجاريها أو يعارضها ؛ فأثارة الأدبية خاضعة لها بأسلوب إيجابي أو سلبى فزهير بن أبي سلمى يمثل في آرائه هذه الطائفة المتطلعة إلى مثل ديني يشبع تحنفها قبيل الإسلام ، وطرفة مثال الاتحاد اليأس في الجاهلية ، وحسان صورة لنهضة الإسلام ، وجريز مثل العراك الحزبي والقبلي في العصر الأموي ؛ وأبو نواس صورة عباسية ، وهكذا نجد الأديب يحكى عصره ولا يمكن فهمه وانصافه إلا بدراسة هذا



العصر في أغلب نواحيه ، وإلا تراءى لنا بعض آثاره شاذاً غير مألوف أو هيناً لا يستحق العناية .

وإذا كان الأديب ثمرة يثنته فمن المشكوك فيه أن يكون نابغة لو تقدم عصره أو تأخر عنه ، ما دامت عوامل البيئة قد وجهته ، وأكسبت شعره أو نثره قيمة موضوعية وفنية ممتازة ؛ فهل كان أبو نواس يفتح في الشعر ما فتح لو كان أمويًا ؟ وهل كان المتنبي يكون حكيم الشعراء أو المعري فيلسوفهم لو لم تنته إليهما خلاصة الثقافة الإسلامية أو يقعا في تجارب كشفت لهما أسرار الحياة والأحياء ؟ ولكن المؤكد أن أحد هؤلاء لو عاش في غير عصره ما اكتملت له هذه الميزات الأدبية التي ظفر بها حين عاش وحيث عاش .

رابعاً - أننا نجد للحياة السياسية والاجتماعية سلطاناً على الفنون الأدبية أيضاً فكثيراً ما تعين فناً على الذبوع والقوة وتدفع بغيره إلى الخمول أو المات ، وإذا ، فعند التاريخ وحده نجد تعليل ذلك ، وتبيان دواعيه ، فما سبب تقدم الهجاء في القرن الأول ؟ ولم اختصت الحجاز بالغزل وما إليه أيام الأمويين ؟ وما بال الخطابة تقوى منذ الإسلام إلى صدر العصر العباسي ؟ وكيف نجد الأندلسيين ممتازين في فن الوصف ؟ وماذا جعل النثر العصري في هذه الروعة أو البراعة .

فالهجاء كان نتيجة الانقسام السياسي والعصبيات القبلية في القرن الأول ، وفي الحجاز كان يعيش السراة من قريش مصروفين عن السياسة فقتلوا فراغهم بالفناء والنسيب ، وكانت الخطابة أداة الدعوة الدينية والسياسية منذ ظهور الاسلام ، فلما استقر الأمر للعباسيين وكبت الحرية ضعفت معها الخطابة . وأما الأندلسيون فقد فتحو أبصارهم على طبيعة جميلة متنوعة المشاهد فوصفوها شعراً ونثراً . وقد أتبع لعصرنا من ثروة الفكر ، وحسن التربية ، ونشاط الحياة السياسية والعلمية والفنية ، مع صفاء الذوق ، والتحلل من الصنع ما جعل النثر الحديث ما نرى .

خامساً — أن البيئة تؤثر أيضاً على الأساليب التي يعبر بها الأدباء ، فإذا درست أطوار الأساليب العربية في عصور التاريخ ، وجدت أن ما نالها من طوابع مختلفة إنما كان متأثراً بأسباب علمية ، وفنية ، وذوقية تحكمت في العبارات والأخيلة ، فصاغتها على مثال خاص ، فالطبائع والحياة الجاهلية السهلة جعلت أساليب الشعر الجاهلي طبيعية لاتصنع فيها ، كما أن الذوق الفني وصل بين زهير والنابغة والخطيئة ، وكان للفلسفة وعمق المعاني ، والتعلق بالبدیع أثر في أساليب أبي تمام ، وإيس من شك أن كان للفن الفارسي والفراغ أثر في الأساليب النثرية في القرن الرابع ، وأن حرية النثر الحديث وفراسته ناشئة عما قدمنا من أسباب أقليلية .

سادساً — أن هذه الميزات التاريخية لكل إقليم تفسر لنا نشأة الآداب القومية في أقطار الشرق العربي ، فانه على الرغم من وحدة اللغة وعلومها العربية نجد الأدب المصري يخالف العراقي ؛ وهما يختلفان عن الأندلسي أو الشامي في بعض الصفات ، ولا يمكن إيضاح ذلك إلا بالرجوع إلى العوامل التاريخية لكل إقليم .

من كل هذه الفوائد التي ذكرت للطريقة التاريخية ، تستطيع إدراك قيمتها في تفسير الأدب وتعليل كثير من فنونه وميزاته ، وفي بيان الدرجة التي بلغها من تصوير بيئته وأن النقد الفني الخالص لا يستطيع الكمال دون الاستعانة بها . ومع ذلك فقد أخذ عليها الباحثون نواحي قصور نجمها فيما يلي :

الأولى — أن هذه الآثار الأدبية التي تنشأ في عصر ما ليست ثمرة هذا العصر وحده لكنها — بحكم قانون الترقى والاستحالة — ثمرة هذا الماضي الموروث قبل الحاضر المستحدث ، والوقوف عند هذه الطريقة يدفع بالباحث إلى خطأتين : الانخداع ورد كل شيء أدبي إلى ما يجري في عصره كأنه مرتجل حديث ناسياً هذه القرون الماضية وما أثرها ؛ ثم الانصراف عن شخصية الأديب وما لها من

أثر وفضل في هذه المنشآت ، وهى على قيمتها ، تعجز الطريقة التاريخية عن تحليلها في أغلب الأحيان . ومعنى ذلك أنها طريقة تتجه إلى الأدب دون الأديب .

الثانية أنها — في اتجاهها إلى الأدب — إنما تعنى بموضوعاتها ومقدار صلتها بالتاريخ ، وتأثرها بالبيئة ، دون عناية بالناحية الفنية التى تتصل بعناصر الأدب ونقدها وبيان ما فيها من حسن أو قبح ، إنها تفسر الأدب تفسيراً عاماً ولا تتغلغل إلى باطنه لاستخراج أسباب جماله وتأثيره ، فإذا فسرنا لنا أسباب خطبه زياد والمعانى التى طرقها فإنها لا تعرض لعبارة الحازمة ، وموسيقاها الجميلة ، ومصدر قوتها ، وما قد تشمله من عواطف صادقة وعزيمة ماضية وأسلوب قوي . هذه النواحي قد تهض بها طريقة أخرى مع الاستعانة بالطريقة التاريخية .

### ثانياً — الطريقة الشخصية

أو طريقة اتخاذ سيرة الأديب وسيلة لفهم آثاره ونقدها ، وذلك أنه لما كانت النصوص أو الكتب الأدبية تصدر مباشرة عن نفس الأديب ، كان من الحق على الباحث أن يرجع إلى هذه النفس بالدرس والفحص لعله يتبين جوانبها ويرد خواصها إلى أصولها الأولى ، وهو بذلك ينير لنفسه سبيل الدرس ، ويستطيع تفسير الأدب وتعليل خواصه وتقديره ، ويكون الأدب بناء على هذه الطريقة سجلاً للتاريخ الخاص بالأديب لا مرجعاً للتاريخ العام للشعب جميعه ، وتقوم الصلة هنا بين الأدب والأديب بعد ما كانت ، فى الطريقة السابقة ، بين الأدب والبيئة .

والسبيل إلى تحقيق ما نحن بصدده أن يعود الباحث ، بما يتاح له من الوسائل ، إلى الأديب فيدرس سيرته منذ الطفولة ، وما تيسر له من ثقافة وتهذيب ، وما انتابه فى حياته من مؤثرات ، ومن صحبه وعلمه ، وأى مزاج غلب عليه ، وما التقاليد التى خضع لها ، وأى عوامل سياسية أو اجتماعية أثرت فى حياته حتى

انتهت به إلى شخصيته الفذة التي صدرت عنها هذه الآثار فكانت تعبيراً عنها وسجلاً صادقاً لسيرة صاحبها؛ فهذا شوق الشاعر، لفهم آثاره لا بد من معرفة نسبه الصحيح، وصلته بالبيت المصري الملكي منذ نشأته، ثم صلته تبعاً لذلك بالخلافة الإسلامية بالآستانة من أول القرن العشرين، ثم ما كان هو فيه من ثراء جعله يعيش مترقاً، لا يحسن الاتصال بالشعب كما اتصل بالقصور وذويها، فكان شعره ملكياً في التاريخ والمدح والأوصاف، ثم مادفع به إلى الأندلس إبان الحرب الكبرى فابتدأ يعيش للشعر بجوده ويستهم شيطانه مخلصاً، ثم عودته واتصاله بنهضة مصرية شرقية قسمت شعره بين مصر والشرق العربي، ومحاولته أن يتنفس في أفق أسمى وأوسع لينهض بالشعر العربي ويفتح فيه تحفة لاطماع النهضة الأدبية الحديثة، وذلك يجعل شعر شوقي قصة حياته يسايرها خطوة خطوة، وعلى ذلك يكون ترتيب الديوان طبقاً لأطوار الحياة وملابساتها. ومسألة السير هذه شغلت فراغاً كبيراً من تاريخ الأدب العربي وكانت كتب التراجم أكثر ما عني به السابقون كابن قتيبة والأصفهاني والثعالبي وياقوت وابن خلكان وغيرهم كثير، وإن لم يذهبوا في حكايتها مذهب التفصيل، والتحليل؛ فقد لاحظوا الفرق بين شعراء البادية والحاضرة، وتأثر بعض الشعراء ببعض، وآثار الأمزجة والعقائد في الكتابة والنظم، ونحو هذا مما يعد مثلاً لصلة الأدب بسيرة الأدب.

كذلك نستطيع بسيرة الأدب، أن نفرس خواص الكتب التي يؤلفها كما لاحظنا ذلك عند الجاحظ من قبل، وكما نرى الكاتب الدستوري يؤلف في المجالس النيابية وحرية الشعوب وحقوقها في رقاب الحكومات. وكما رأينا كتاب نهج البلاغة لمؤلفه الشريف الرضي يتضخم وينسب لعل بن أبي طالب من الخطب والأقوال ما يستحيل أن يكون له فسيب ذلك أن الشريف شيعي نسب إلى علي

من أنواع الأدب الشيء الكثير كثيراً لآثاره ، وهكذا نستطيع أن نذكر لهذه الطريقة ما ذكرنا للطريقة السابقة من فضل على دراسة الآثار الأدبية في فنونها وأساليبها .

ومع ما لهذه الطريقة الشخصية من فضائل فقد تعرضت هي أيضاً لأنواع من القصور نذكرها فيما يلي :

أولها : أن هذه الطريقة تعرض متبعمها لعصبية دينية ، أو مذهبية أو جنسية أو ذوقية فيميل في تفسير الأدب أو نقده مع هذا الهوى الغريب الذي ينقل الدراسة من مجالها الحقيقي إلى مجال الدعاية السخيفة ، فالمسلمون ربما فضلوا الفرزدق والمسيحيون قد يؤثرون الأخطل ، والفرس يفضلون أبا نواس ، والروم يميلون مع ابن الرومي ، ورجال البديع لا يرون شاعراً كآبي تمام ومسلم ، وشاعر الفلاسفة هو المعري ، وأصحاب عمود الشعر وجماله مع البحتری وهكذا تصبح الأحكام النقدية خاضعة لأسباب مذهبية أو نفسية خاصة . ومن الحق أن كثيراً من النقد القديم والمعاصر متأثر بهذه النزعات كما تجده في الأغاني وكتب الطبقات وفي الصحف والمجلات . ولذلك كنا في حاجة إلى الاحتياط في الأحكام والبعد عن هذه المؤثرات التي تبرزها سيرة الكاتب أو الشاعر ، ولقد كان من ذلك أن ثار كثير من النقد على هذه الطريقة ونادوا بإبعادها قائلين لا يعنيني فارسية أبي نواس ولا تهتكه ، ولا زهد أبي العتاهية وتخرج المعري ، وإنما يعنيني النص الأدبي وما قد يكون فيه من صفات القوة والجمال ، كالرسم يعنيني جماله مهما يكن راسمه .

ونحن نخشى كذلك المبالغة في هذه الحيلة المفرطة أن تفقدنا ما لسيرة الأديب من فضل في التاريخ والنقد الأدبي وبخاصة إذا كان الأدب صورة قوية للشخصية ، وذلك لاختلاف الشخصيات وقوة آثارها في المنشآت الطبيعية غير:

المقدمة ، فعرفة السيرة نافعة على الأقل في بيان مذهب الأديب ووجهة نظره ، وهذا يعين على دقة فهمه وتقديره .

ثانيها : ما قد تقضى به من إسناد كل شيء إلى شخصية الأديب وحياته الخاصة وإغفال آثار البيئة العامة وعواملها ، مع أن الإنسان ، مهما تكن أسباب نباهته ، متأثر بما يجري حوله من أحداث وما يحيط به من مشاهدة وتقاليد ، سواء أكان معها أم عليها فيكون أديبه ، ولو بدرجة هينة ، ثمرة التفاعل مع هذه البيئة ولذلك تجد في العصر الواحد والمكان الواحد المتقابل بجانب المتشائم ، والزاهد مع الخليع ، والحكيم والطائش الجاهل .

نعم هناك أفراد تعلق بهم عبقريتهم على الزمان والمكان ، ويكونون ملكا للبشرية كلها ، فيصورون ، ولو في بعض ما يتركون ، خواص الانسانية والطبيعة في أبعد مثلها وأعرق معانيها المشتركة بين الأفراد والطوائف وفي كل مكان كما يروى لشكسبير أو هوميير . ولكن هذه الأمثلة على قلتها لاتسلم من بواعث إقليمية أثرت في الأدب ولو بطريق غير مباشر .

ثالثها : أن هذه الطريقة تتخذ سيرة الأدب وسيلة إلى درس أدبه ، مع أن الباحثين يعكسون الوضع فيتخذون الأدب وسيلة لمعرفة السيرة ، ولا سيما إذا تعذر معرفة الحيات الخاصة للأفراد كما هو المقرر في العصور الماضية خاصة ، وهنا أثبتت هذه المسألة : أيهما أصح : دلالة الأدب على حياة الأديب أم دلالة حياته على أدبه ؟ وعندى أن الأدب يدل على صاحبه وقت الإنشاء أى وقت انفعاله ، وقد يكون هذا الوقت غير عادى ولا مألوف <sup>(١)</sup> . ولعله هو الذى يعنى الدراسين والنقاد لأنه وقت الإلهام الفنى الممتاز

ولذلك تجد حسان بن ثابت شجاعا في شعره دون سلوكه ، ذلك لأن حماسة الشعر إنما كانت ثمرة لهذه اللحظات الانفعالية التى شملته وقت التغنى بالقول ،

فلما انكشفت عاصفتها عاد الشاعر إلى إلفه العادى وحياته الطبيعية العاقلة .  
وهذا يكشف لنا عن هذا التناقض الذى نلاحظه بين صورتى الأديب : فى سلوكه  
الاجتماعى وفى آثاره الأدبية .

رابعها — أن هذه الطريقة ستبقى قاصرة عن أن تتعمق لتصل إلى أسباب الجمال  
والقوة فى الأدب ، ومبلغ ما تغنى به هو المعونة على فهم موضوعات الأدب وتعليل  
بعض فنون الأديب وأوصافه العقلية والخيالية فيما يقول ، ولكن التحليل العميق  
لعناصر الأدب ومواطن تأثيره يتجاوز جهد السير وميدانها ، فزياد خطيب حازم  
وقف مع معاوية وثار فى وجه العراقيين وبلغ من التوفيق مبلغا ساميا بخطبته  
البتراء .. كل ذلك تشرحه سيرته بتأثره بعمر بن الخطاب وأخذه بأداب القرآن ،  
واستلحاق معاوية له ، والاعتماد عليه لما حزب الأمر . ولكن كلامه وأسباب  
قوته وخواصه الموسيقية ، وكيف أخذ على الثوار نفوسهم ، ذلك ميدان آخر يتصل  
بعقريّة زياد ومواهبه التى قد يعجز التاريخ العام والخاص عن الخوض فيها .  
لذلك كنا فى حاجة إلى طريقة أخرى أدخل فى باب الأدب وأوثق بجوهرة وإعلها  
الطريقة الثالثة .

### ثالثا — الطريقة النقدية

وهنا نتصل بالنصوص الأدبية مباشرة لنعرف خواصها الفنية وقيمتها فى ذاتها  
بصرف النظر عن قائلها أو عصرها ، فنسأل عن القصيدة ، أو الخطبة ، أو القصة  
أو الرسالة : ما قيمتها باعتبارها قطعة أدبية ؟ ما سر قوتها وجعلها ؟ لماذا خلدت على  
الأيام ؟ والحق أن هناك من الآثار الأدبية ما يثبت أمام التاريخ والنقد الأدبى ،  
ويجيب عن هذه الأسئلة الدقيقة دائما دون حاجة إلى الرجوع إلى بيئته أو منشئه .  
والسبب فى ذلك ، كما قيل سابقا ، أنها قامت على عناصر عامة لا ترتبط بزمان

أو مكان أو قائل بعينه . وقد قيل عن شكسبير « أنه ليس ملكاً لأى عصر بل لكل عصر » ويمكن أن يدخل فى هذا الباب كثير من حكم المتنبي وآراء المعري التى تعبر عن الطبائع والفرائز الإنسانية الخالدة فتكون مؤثرة فى كل نفس لأنها صورتها التى تعلو على البيئات جميعاً .

هذا الكلام يصح بالنسبة إلى الأفذاذ من كبار الأدباء . أما كثرتهم فقد عرفت ما للعوامل الحياة من سلطان على ما ينشئون حتى إنها تتقدم أحياناً فتؤثر فى جمال التصوير وحسن التعبير ، وقد قيل لابن الرومى لم لا تشبه كتشبهات ابن المعتز؟ فقال : مثل ماذا ؟ ف قيل له : كقوله فى الهلال :

انظر إليه كزورق من فضة قد أثقلته حمولة من غصير  
فقال : ثم ماذا ؟ ف قيل له : قوله فى الآذريون ، وهو زهر أصفر فى وسطه  
خمل أسود :

كان آذريونها غيباً سماً هامية  
مدهن من ذهب فيها بقايا غالية<sup>(١)</sup>

فقال ابن الرومى : واغوثاه ! ذاك إنما يصف ما عون بيته لأنه ابن خليفة ، وأنا أى شيء أصف ؟ ولكن انظر إذا أنا وصفت أين يقع قولى من الناس ، فهل لأحد قط مثل قولى فى قوس الغمام :

وقد نشرت أيدى الجنوب مطارقاً من الجود كناً ، والحواسى على الأرض  
يطرزها قوسُ السحاب بأخضر على أحمر فى أصفر إثر مبيض  
كأذبال خود أقبلت فى غلائل مصبغة ، والبعض أقصر من بعض

على أن هؤلاء الأفذاذ إنما كانوا يستلهمون عصورهم ويتأثرون بحياتهم فيما تناولوا وأنشأوا ولو من الناحية الموضوعية ، ثم امتازوا بعد ذلك بالعمق وتصوير



الصفات والعواطف الخالدة ، فالحب في روميو وجوليت ، والغدر في الملك لير ،  
والغيرة في عطيل كلها صفات إنسانية خالدة عرضها شكسبير في قصص يخفق لها  
كل قلب ، ويتأسى كل عقل ، ويشور كل ضمير حيث كان وحين يكون ، وربما  
كان من الملاحظ أن يكون أمثال هؤلاء جامعين بين وصفين متناقضين في  
الظاهر ؛ فهم متصلون بعصورهم حين استلهموها الموضوعات والعناصر وهم فوقها  
فيما صوروا ، وأوسعوا آفاقهم ، وتعمقوا في الإدراك .

نستطيع إذاً أن نحدد هذه الطريقة ونميزها من الطريقتين الأوليين ، بأنها  
تتناول الأدب في جوهره وصفاته التي تجعل منه أثراً فنياً ، وتحاول بيان المقاييس  
التي نسترشد بها لبيان قيمة النص ودرجته ، فترده إلى عناصره ، وتنظر في كل  
منها متبينة أسرار قوته وتأثيره أو أسباب ضعفه وقيمه ، وهي الطريقة الجديدة في  
فن الأدب ، وهي التي نخصص لها الفصول التالية من هذا الكتاب .

ومن البدهي أننا لا نستغنى استغناء مطلقاً عن الاستعانة بالتاريخ والسير ،  
فهما كما قدمنا مصباح ينير سبيل النقد ، ويعين على الانصاف وحسن التعليل ،  
ويمهد للظفر بمقاييس صالحة للحكم على جميع العناصر الأدبية منفردة أو مجتمعة فما  
النقد الأدبي ؟ وكيف يكون ؟